القدّيس ذياذوخس

أسقف فوتيكي

مائة مقالة في المَعرفة الرّوحيّة



تعريب دير مار جرجس الحرف

١٩٩٢

طبعة اولى

١٩٩٢

مقدمة

١ - سيرة الاسقف ذياذوخس

• المعلومات المتوفّرة عن سيرته قليلة جداً.

• يُستنتج من رهافة ثقافته ونقاوة لغته واسلوبه انه يوناني المولد. وتُرجَّح ولادته حوالي العام ٤٠٠. فان القديس فوتيوس يذكره بين داحضي اصحاب الطبيعة الواحدة المعاصرين للمجمع المسكوني الرابع المنعقد في العام ٤٥١. وقد وقّع الرسالة التي قدّمها اساقفة مقاطعة إبيرُس القديمة الى الامبراطور لاون الاول في العام ٤٥٧ على اثر اغتيال بروتيريوس الاسكندري. وفي العام ٤٨٦، حين صدور كتاب «تاريخ الاضطهاد البربري» كان قد توفي حسبما يذكر مؤلفه فيكتور دي فيتا.

• مركز ابرشيته البلدة الصغيرة فوتيكي هو المكان المسمّى الآن ليمبوني على مسافة ساعة واحدة شمال غرب مدينة باراميثيا في المنطقة الغربية من اليونان.

• يبدو من اقواله انه كان بمثابة أبٍ لشركةٍ رهبانية يوجّه اليها كلامه.

• مقالاته من النوع الادبي والتعليمي ولكن تتخلّلها احياناً نبرة شخصية تنمّ عن خبرة ذاتية متستّرة إلا انها شفّافة.

٢ - مؤلفاته

• **مائة مقالة في المعرفة الروحية**، أو « في الكمال الروحي» بحسب مخطوطة القديس نيلوس الصغير. وان عدداً من المخطوطات الاخرى

تعنونه «مقالات عملية في المعرفة والتمييز الروحيين» او **«احاديث نسكية»** (والمخطوطات كثيرة جداً، منها خمس عشرة قبل القرن الثاني عشر). وتبدو غاية المؤلف واضحة وهي كتابة نوعٍ من دليل روحي للكمال...

● **عظة بمناسبة عيد الصعود**، يدافع فيها بفصاحةٍ وبأسلوبٍ ايقاعي رائع عن طبيعتي المسيح، ويتكلم عن تأليه الانسان بفعل تجسّد ابن الله في طبيعة بشرية حقيقية.

● **الرؤيا**، وهو كتاب يتضمّن حواراً بين المؤلف ويوحنا المعمدان، يبدأ بمدح سيرة التوحّد، ويسأله فيه عن طبيعة الظهورات الالهية، وعن شكل معرفة الله، وعن الملائكة الخ...

● وهناك مؤلَّف رابع عنوانه « **التعليم**» تنسبه بعض المخطوطات لذياذوخس ولكن مخطوطات اخرى اكثر عدداً تنسبه لسمعان اللاهوتي الحديث، وهو عبارة عن اسئلة واجوبة حول علاقة الله بالعالم ومعرفة الملائكة لله ورؤيتهم ورؤيتنا له تعالى وعن الخلاص بالاعمال وما الى ذلك...

٣ – مقاومته للبدع

● الى جانب مقاومته لمعتقد الطبيعة الواحدة في العظة عن الصعود كما مرّ اعلاه، عمل ذياذوخس على دحض بدعة «المصلّين» في كتاب المئة مقالة:

● ظهرت شيعة «المصلّين» في نهاية القرن الرابع في سوريا على يد نسّاك متجوّلين وانتشرت سريعاً في كل آسيا الصغرى. يُلخّص معتقدهم في ان للنفس عدة اعضاء، وان المعمودية لا تطرد الشيطان من طيّاتها، فالنعمة والخطيئة تقيمان معاً في نفس المسيحي، وان الصلاة الدائمة وحدها تستطيع القضاء على حضور الشيطان، لا المعمودية ولا اي سر من اسرار الكنيسة (ومن

هنا تسميتهم بالمصلين)، وان الغاية الاخيرة هي بلوغ حالة اللاّهوى.

● ان جعل الصلاة الدائمة الوسيلة الوحيدة للخلاص يفتح الباب للتطرُّف على كلا الصعيدين الروحي والاخلاقي. اذ قد يتخيّل المرء المنقطع للصلاة فقط أنه يعاين قوات غير منظورة، او يحسب نفسه خالياً من اي خطأ. فمنعاً لسوء فَهْمِ اللاهوى يقول ذياذوخس بضرورة الجهاد الى جانب الصلاة (المقالة ٩٨). كما يعارض مساكنة روح الحق وروح الكذب في النفس في آن واحد مستشهداً بالكتاب المقدس (المقالة ٧٦ و٨٠ و ٨١ و ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ و٨٦).

● ثم يتعرّض للرؤى اذ إن «المصلين» كانوا يدّعون انهم ببلوغهم اللاهوى يعاينون ما في القلوب ويعرفون المستقبل ويخبرون خبرات روحية رفيعة فيشاهدون ظهورات نورانية ويرون الثالوث القدوس متحوّلاً الى اقنوم واحد الخ... كل ذلك بصورة ملموسة وبيقين كلّي في الحس الداخلي، مع مشاعر تشابه العلاقات الزوجية... فيقاوم ذياذوخس كل ذلك ويرى في كل ملاك نور ابليساً متستراً، ويقول ان كل رؤيا نورانية هي استباق الى السماء لا نستحقّه. إلا انه يوافق على ان النفس المتطهّرة في حالة اللاهوى تستطيع ان تعاين ذاتها (المقالة ٤٠) ولكن ليس في رؤية محسوسة بل رؤية جمال النعمة في النفس مجرّدة من اية صورة، نبلغها بالدعاء المتواصل لاسم الرب يسوع (المقالة ٥٩). اما الاحلام فقد يكون بعضها من الله ولكنه يفضّل ان نرفض قبولها جملة حتى في هذه الحالة (المقالة ٣٩).

٤ – تعليمه

● تمتاز روحانية ذياذوخس اجمالاً بالاتّزان والاعتدال وسلامة الرأي. وقد تناول بصورة خاصة المواضيع التالية: معرفة الله والذات، لاهوت النعمة، تمييز الارواح، الصلاة، المسيرة الروحية، فكان فيها معلماً.

● معرفة الله والذات

● في حالة الانخطاف بالله تغفل النفس عن ذاتها (التعريف الخامس)، ويتغيّر المرء كله فيكون في هذه الحياة دون ان يكون فيها، اذ يهاجر دون انقطاع نحو الله، يقتلعه حبّه له من حبّه لذاته (المقالة ١٤).

● ولكن الحرارة الروحية تتأتّى ايضاً من معرفة الذات. ومعرفة الذات الروحية، لا المعرفة الطبيعية فقط، تتيح للحرارة الديمومة في «الحس الداخلي» بيقين قلبي وتذوّق وخبرةٍ لامور الله (المقالة ٧٤).

● غاية معرفة الله محبته. المقالات ١٢ الى ١٣ تصف الوصال بالله بحرارة الخبرة الشخصية وتتكلم عن الامحاء امامه وطلب مجده الالهي فوق كل شيء، وعن محبة القريب الناجمة عن الشعور بوفرة غنى محبة الله، وعن الحريّة الداخلية التامة التي تتميز بها المحبة الكاملة.

● لاهوت النعمة

● تحتلّ النعمة مكاناً اساسياً في لاهوت ذياذوخس. فمنذ حلولها في النفس بالمعمودية لا تعود تقبل اية مشاركة. غير انها لا تستعلن بملئها فوراً بل بمقدار تقدم الانسان روحياً (المقالة ٧٦). فيتحوّل المرء تدريجياً بفعل صلاح الله الى ما لم يكن (المقالة ٢ و ٢٩ و ٦٢ و ٧٨)[١].

● خلق الله الانسان «على صورته ومثاله». فمبدأ مماثلتنا لله قائم على صورته فينا، وهذه الصورة مقيمة في طبيعة الانسان، وهي لم تنقرض بسقوط آدم بل تعتّمت وتشوّهت فقط. ولكن نعمة المسيح بالمعمودية تنقّيها

(١) يوضح ذياذوخس ذلك في عظته عن الصعود الالهي فيقول ان الانسان انما يصير الى ما كان عليه سابقاً قبل السقوط.

وتعيدها الى حالها الاول إن لم يكن الى حال افضل (المقالة ٤ و ٧٨ و ٨٩ و ٧٩ بنهايتها).

● المعمودية لا تُلغي ازدواجية الارادة الانسانية. فمعصية آدم شطرت «الحسّ الداخلي» الى نشاطين. اما النعمة فتفعل تدريجياً كما رأينا فتدفّيء المبتدئين جزئياً فقط ولكنها تتوصّل شيئاً فشيئاً الى ملاشاة افكارنا الجسدانية مُعدّة ايانا لان نفكّر روحياً بصورة كليّة.

● تمييز الارواح

● يبرع ذياذوخس في تمييز حالات النفس المختلفة، فيعلّمنا ان نغربل افكارنا (المقال ٢٦) ولا «نحزن الروح» (المقالة ٢٨)، وان نذوق «ما اطيب الرب» بالحس الروحي (المقالة ٢٩ و ٣٠) ونميّز التعزية الالهية عن التعزية الآتية من الشيطان (المقالة ٣٠ الى ٣٣) متسلّحين بذكر الله ودعاء اسم الرب يسوع وبخبرة التمييز في الحرب التي يثيرها ابليس على النفوس المتقدمة في الحياة الروحية. ان الخبرة او التذوق مصدر فرح اصيل، وهو ثمر عمل الروح، يُفضي الى محبة اسمى بكثير من المحبة الطبيعية (المقالة ٣٤ و ٣٥).

● ويميّز ذياذوخس بدقة بين تخلّي الله التربوي وتخلّيه الارتدادي عنا. فان الله يسمح، عند تقدم النفس، بأن تزداد حروب الشيطان عليها لكي تتعلم تمييز الخير من الشر بدون خطأ وتزداد تواضعاً (المقالة ٧٧ و ٨٥ و ٩٠). وهذا التخلي التربوي لا يعدم النفس النور الالهي انما يحثها على طلب معونة الله بخوف وانسحاق؛ في حين ان التخلي الناتج عن رفض النفس لله يسلّمها مقيّدة الى الشيطان (المقالة ٨٦). ولكنها اذا اعترفت بخطاياها بدموع تخلص (المقالة ٨٧).

● الصلاة

في مجال الصلاة يؤكد ذياذوخس على ذكر الله ذكراً داخلياً

مستديماً. فالذكر المدعوم بالصمت يحفظ حرارة النفس وتجمُّعها وخشوعها ويأتي بالقلب الى التوجّع والوداعة (المقالة ٧٣). ان «الذكر» (ذكر الله والخير والصلاح والمحبة الروحية، ذكر الذهن والقلب) يرد مراراً وتكراراً عند ذياذوخس (المقالة ١١ و ٢٧ و ٣٢ و ٣٣ و٥٦ و٥٩ الى ٦١ و ٧٩ و ٨١ و ٩٠ و٩٧ و٨٩). وذكر الله بحرارة يُنبع الشوق الى الله من اعماق القلب (المقالة ٧٩).

● ويتحدّد ذكر الله بذكر «الرب يسوع» او «اسم يسوع» وهو السلاح الاكبر ضد اوهام الشياطين ووسيلة البلوغ الى رؤية النفس ورؤية النعمة في النفس (المقالة ٣٢ و ٦١ و٨٨ و٩٧ و٣١). ويُعتبر ذياذوخس في هذا المجال من روّاد صلاة اسم الرب يسوع.

● ويلاحظ اقتران كلمة «صلاة» بكلمة «انتباه» او يقظة، وكثيراً ما ننقاد الى ايراد كلمة انتباه مكان كلمة صلاة في النص استناداً الى بعض المخطوطات (الكلمتان متقاربتان جداً في اليونانية).

● المسيرة الروحية

● ان تعاليم ذياذوخس تتناول كل مراحل المسيرة الروحية بدءاً بالمبتدئين وانتهاءً بالمشاهدة الالهية.

● يؤكد ذياذوخس كثيراً على ضرورة الجهاد النسكي اذ ان الجسد حليف الارواح الشريرة ... وهذه الحرب الشاقة لا تنتهي الا بانتهاء العمر. والذين يدركون مرتبة الشهداء بكمال نسكهم يُعتقون وحدهم منها (المقالة ٧٨، ٧٩، ٩٠، ٩٤، ١٠٠).

● بالاضافة الى الجهاد ضد الضجر (المقالة ٤٥ و ٥٨) وضد الغضب (المقالة ٦ و ٢٦ و ٦١ و ٩٩) يفرض ذياذوخس على النفس نسكاً رهبانياً شبه كامل، فيؤكد على الفقر والامساك والطاعة والتواضع.

● فالتخلي عن املاكنا يثبتنا حرية الفكر والاتضاع والوقاية من فخاخ العدو، فتتفتّح النفس للنعمة ومحبة الله ولموهبة التبشير بالانجيل (المقالة ٦٥ و ٦٦)، الفقر افضل من التصدّق والاحسان (المقالة ٦٥ و ٦٦).

● والامساك (اي الاعتدال او العفة بالمعنى العام للكلمة) اسم مشترك لسائر الفضائل (المقالة ٤٢). فعدم الشراهة يفترض الاماتة والزهد ومحبة الله والقريب (المقالة ٤٣ الى ٤٥). وعدم التطرّف يتغلب على تجارب الكبرياء (المقالة ٤٦ و ٤٧). والصبر على الامراض يقوم مقام الاستشهاد (المقالة ٩٤)، بل ينبغي عدم الاهتمام بأي شيء على الارض (المقالة ٥٥ الى ٥٧).

● اما الطاعة فهي محتواة في الامساك والعفة اذ ان عدم الطاعة يأتي بنا الى الزنى (المقالة ٤٢). ولكن يجدر بنا ان نسعى اليها بحدّ ذاتها اقتداءً بالمسيح (المقالة ٤١).

● والتواضع اهمّ من الصوم (المقالة ٤٦). ويجب الاّ يكون ايُّ شيء مدعاةً للتكبّر. التواضع يولّد الدموع لاجل غفران الخطايا (المقالة ٣٧ و ١٠٠) وهو يتولّد من الفقر (المقالة ٦٥ و ٦٦) ويأتي بنا الى المشاهدة الروحية (المقالة ٦٨ و ٧٢)، ليس هو هوساً ولا قنوطاً بل رجاء (المقالة ٦٩).

٥ – اسلوبه

● يتّصف اسلوب ذياذوخس بالطراوة والمرونة والعمق الصافي «صفاء عيون الاطفال». انه يستعمل تشابيه بسيطة وواضحة دون ان تكون جافة. لا يتمادى في الشرح فهو وجيز غير كثيف. تعاريفه قصيرة وبليغة. وايقاعه رائع بديع غير قابل للوصف.

٦ - تأثيره

● انكبّ رهبان اديرة اليونان والشرق على مطالعته. واستوقفهم بصورة خاصة تمييز الارواح (المقالة ٢٦ الى ٤٠ و ٧٥ الى ٨٩) والنصائح النسكية المنتشرة في كل كتابه ولا سيما الدعاء باسم الرب يسوع (المقالة ٣١ و ٥٩ و ٦١ و ٨٥ و ٩٧).

● لا يبدو ان تأثره بإفاغريوس البنطي قد اضرّه بشيء، لأن حسّه الارثوذكسي الذي فطر عليه وقاه من انحراف اوريجنس كما وقاه من معتقدات المصلّين واصحاب الطبيعة الواحدة. فكان ذياذوخس الى جانب إفاغريوس معلّم الروحانية الشرقية.

● مؤلفات مكسيموس المعترف نفسه ملآى بتذكرّ اقوال ذياذوخس، اما يوحنا السلّمي فاستعار منه احد التشابيه (مثال الام وطفلها) وهو يقاربه في تعليم صلاة اسم يسوع. وسمعان اللاهوتي الحديث نشأ على قراءة المقالات المئة التي كانت مطالعته الروحية الاولى ...

● قد يكون الغرب المسيحي عرفه منذ نهاية القرن الخامس وذلك عبر جوليان بومير الذي التقى به على الغالب في آخر ايامه في قرطجنّة حيث كان ذياذوخس منفيّاً، وكتب في مدينة آرل في فرنسا كتاب «الحياة التأملية» المتأثر بالمقالات المئة ...

● ابتداءً من القرن العاشر ازداد عدد مخطوطات كتاب المقالات المائة في جنوب ايطاليا وربما انتقلت الى اسبانيا حيث اثّرت على اغناطيوس دي لويولا مؤسس الرهبنة اليسوعية وعلى تيريزيا يسوع مؤسسة رهبنة الكرمليت، فيفسّر هذا وجود التشابه الكبير القائم بينهما وبين ذياذوخس.

● منذ نهاية القرن السادس عشر حيث ترجمت المقالات المائة الى اللاتينية عام ١٥٧٠ صار ذياذوخس بين الآباء الموصى بمطالعتهم

عند اليسوعيين.

● منذ بداية هذا القرن فقط كثرت الدراسات والطبعات بمتناول القرّاء في الغرب. فأول ترجمة فرنسية كاملة صدرت في العام ١٩٤٣. وهناك ترجمة الى اللغة الروسية منذ العام ١٩٠٣.

* * *

● هذا وقد ورد اسم ذياذوخس في كتاب التريوذي بين القديسين النّساك الذين تعيّد لهم الكنيسة يوم سبت مرفع الجبن في مستهل الصوم الكبير، ولكننا لم نجد له ذكرا في كتاب الميناون الانطاكي ولا في تيبيكون كنيسة القسطنطينية العظمى... وجدير بالذكر ان القديس غريغوريوس بالاماس الذي يستشهد به اكثر من مرة في كتابه «في الدفاع عن الهدوئيين»[1] يدعوه «القديس ذياذوخس» ويقول عنه انه «عجيب».

● الخلاصة ان القديس ذياذوخس هو أحد الآباء القديسين الروحانيين الذين عاشوا كل أبعاد الارتقاء النفسي والروحي فاكتسب خبرة الطبيب النفساني البارع الممتلىء نعمة وحكمة فكتب فصوله هذه للرهبان، بل لكل مسيحي، يعالج فيها مصاعب النفس التي تطلب الله ويرشدها في سلوك الحياة في المسيح ويجعلها تتوغّل في الصلاة القلبية والاستنارة والتأله بالنور الالهي، في طريق الفرح والمحبة واللاهوى بالروح القدس.

(١) ترجمة الاب جان مايندورف الى الفرنسية، طبعة لوفان عام ١٩٥٩، الجزء الاول صفحة ١٠٨ و١٢٢ و ٣٣٦ و ٢١٨.

مائة مقالة في المعرفة الروحية
لذياذوخس اسقف فوتيكي

تمهيد

تعريف اول: **الايمان** فكرة عن الله خالية من اي هوى.

تعريف ثان: **الرجاء** هجران الذهن نحو المرجوّات لهيامه بها.

تعريف ثالث: **الصبر** تجلّد لا ينقطع، فيما عين القلب ناظرة اللامنظور كأنه منظور.

تعريف رابع: **عدم حب المال** حرص على عدم التملك يوازي حرص الناس على التملك.

تعريف خامس: **المعرفة**[1] غفلة المرء عن ذاته في ذهوله بالله.

تعريف سادس: **التواضع** نسيان دائم لانجازاتنا.

تعريف سابع: **عدم الغيظ** توق كبير الى عدم الغضب.

تعريف ثامن: **العفة** تعلق القلب بالله على الدوام.

تعريف تاسع: **المحبة** ازدياد مودتنا لشاتمينا.

تعريف عاشر: **التغيّر الكامل** احتسابنا أهوال الموت فرحاً لتنعّمنا بالله.

(١) المعرفة الروحية لا العقلانية

مقالات ذياذوخس اسقف فوتيكي
في الحكم والتمييز الروحيين

في اية معرفة يجب ان نسلك، بإرشاد الرب، سعياً للكمال الموضوع امامنا لكي يثمر زرع الكلمة في كل منا نحن المقتدين بالمثل الانجيلي للخلاص.

عموميات

١ ـ كل مشاهدة روحية، يا اخوة، ينبغي ان تسترشد بالايمان والرجاء والمحبة، وخاصة المحبّة. فالايمان والرجاء يدفعاننا الى رذل المنظورات. اما المحبة فتشرك النفس بمحامد الله اذ انها بالحس العقلي تبتغي اللامنظور.

٢ ـ الله وحده صالح بالطبع. اما الانسان فيصبح ايضا صالحاً بسعيه وعنايته، فالنفس المهتمة بالصالحات تتحد بالله قدر طاقتها وارادتها واذ ذاك وبفعل صلاح الله يتحول الانسان الى ما لم يكن، لان الرب يقول: «كونوا رحماء كما ان أباكم السماوي رحيم». (لو ٦: ٣٦).

٣ ـ لا طبيعة للشرّ وما من أحد شرير بالطبع لأن الله لم يصنع شيئاً رديئاً. ولكن عندما نعطي بدافع من شهوة القلب شكلاً لما ليس له جوهر، عند ذاك يبتدىء ان يوجد ما اردناه ان يكون. فينبغي اذاً ان نُعرض دائماً عن الميل الذي فينا الى الشر بدأبنا على ذكر الله. لان طبيعة الخير أقوى من الميل الى الشر ما دام للخير وجود، بينما لا وجود للشر الا حين نفعله.

٤ ـ نحن البشر جميعاً على صورة الله. ولكن يكون على مثاله فقط الذين اخضعوا حرّيتهم له بحب كثير. لاننا حين نتخلى عن امتلاك انفسنا نصير على مثال من صالحنا بالمحبة. وهذا لا يبلغه احد ما لم يقنع نفسه

بألاّ تبالي بالمجد البشري الباطل.

٥ ـ الحرية ارادة نفس عاقلة، متهيّئة للتحرك الى ما تريد. فلنحملها على ان تبادر نحو الصالحات فقط لكي نُبيد بالافكار الصالحة ذكر الشرور دون انقطاع.

في المعرفة والحكمة

٦ ـ في المعرفة الحقيقية نور يميّز الخير من الشر بمنأى عن اي خطأ. لان الذهن الذي بات يبتغي المحبة بدالة يقوده طريق العدل الى شمس العدل فيدخل شيئاً فشيئاً في استنارة المعرفة التي لا حدّ لها. لذا ينبغي انتزاع الحق من المتجاسرين على انتهاكه، وذلك بقلب خالٍ من الغضب لان غيرة التقوى تغلب بالاقناع لا بالبغض.

٧ ـ الحديث الروحي يشبع العقل لأنه يأتي من عند الله بفعل المحبة. لذا ايضاً يبقى الذهن غير متضايق اثناء حركة الكلام عن الله، لانه لا يعاني حينذاك من العوز المسبِّب للهمّ اذ انه يَرحَب للمشاهدات بقدر ما يتيح له ذلك فعل المحبة. فجيّد اذاً ان ننتظر دائماً، بايمان عاملٍ بالمحبة، الاستنارة التي ستحملنا على الكلام. لانه ليس اعجز من الفكر الذي يتفلسف خارج الله في امور الله.

٨ ـ يجب ان لا نبادر الى التكلم في الامور الروحية بدون استنارة، وان لا نتكلم ايضاً حين يفيض علينا الروح القدس نوراً وافراً. لانه حيث العوز يكون الجهل، والنور الوافر لا يدعنا نتكلم. اذ ان النفس السكرى بالحب الالهي تروم حينذاك ان تنعم بمجد الرب صامتة. فيجب اذاً التزام حدّ وسط في إقبالنا على الكلام عن الله. وهذا الاعتدال يثيبنا لا ادري اي جمال رائع في حديث روحي بهيّ. فوضوح الكلام يغذّي بوفرته اولاً ايمان المتكلم

بدافع الايمان، ليكون المعلّم اول من يذوق بالحب ثمار المعرفة. فإنه ينبغي كما يقول الرسول: «أن الحرّاث الذي يتعب يشترك هو اولاً في الاثمار» (٢ تيم ٢: ٦).

٩ — الحكمة والمعرفة موهبتا روح قدس واحد ككل المواهب الالهية، ولكن لكلٍ منهما فعلها الخاص مثل سائر المواهب الاخرى. ولذا يشهد الرسول بأنه «للواحد تعطى الحكمة وللآخر المعرفة بحسب الروح الواحد» (١ كور ١٢: ٨). فالمعرفة تُتحِدُ الانسان بالله بالخبرة دون ان تدفع النفس الى الكلام. لذا ايضاً يستنير حسّ بعض العائشين حياة العزلة في المعرفة الحقّانية دون ان يأتي هذا بهم الى التحدث عن الله. أما اذا أُعطيت لاحد الحكمة مع المعرفة والمخافة في آن — ونادراً ما يحصل ذلك — فان الحكمة حينذاك تُظهر قوة المعرفة ما دامت هذه تنير الآخرين عادة بالقوة[1] وتلك بالكلام. هذا وإن المعرفة تأتي بها الصلاةُ بهدوء كثير وزهد تام، أما الحكمة فيأتي بها التأملُ الدؤوب المتواضع في الاقوال الالهية، وقبل كل شيء تأتي بها نعمة الله المعطي.

١٠ — عندما يتحرك غضب النفس ضد الاهواء فلنعلم انه وقت الصمت لانها ساعة الجهاد. أما اذا رأينا هذه العاصفة تهدأ بالصلاة أو بأعمال الرحمة فلنقبل على الحديث الالهي مثبّتين جناحي النفس برباط الاتضاع. لاننا إن لم ننسحق كلياً لا نستطيع الكلام عن عظائم الله.

١١ — الحديث الروحي يحفظ النفس دائماً في مأمن من المجد الباطل لانه من جرّاء شعور طيّب بنور يتدفق في كل طيّاتها يجعلها تستغني عن اكرام الناس. ولذا ايضاً يحفظ الفكر دائماً معتقاً من التصوّرات،

(١) اي بقوة الروح القدس ومواهبه

اذ يحوّله كله الى محبة الله. اما حديث الحكمة الدنيويّة فهو على العكس من ذلك يدفع المرء دائماً الى طلب مجد الناس، لانه اذ لا يستطيع ان يوفّر للمتكلّمين فائدة الخبرة المحسوسة يعرض لهم الشغف بالمدائح ما دام صنع اناس محبّين للمدح. سنعرف اذاً دون خطأ الحالة التي تلازم الحديث الالهي اذا كنا في الاوقات التي لا نتكلم فيها ننصرف، في صمتٍ خالٍ من اي اهتمام آخر، الى ذكر الله ذكراً حارّاً.

في محبة الله

١٢ – مَنْ كانت نفسه عزيزة في عينيه لا يستطيع ان يحب الله. أما الذي لا يحب ذاته من جرّاء فائق غنى محبة الله له (اف ٢: ٧) فهذا يحب الله. لذا فإن مثل هذا الانسان لا يطلب ابداً مجده بل مجد الله، لان الذي يعزّ نفسه يطلب مجد نفسه. من يحب الله يحب مجد خالقه، إذ من خصائص النفس المتحسّسة لحب الله ان تطلب دائماً مجده في حفظها للوصايا كافة، وان تنعم بانسحاقها، فبالله يليق المجد لاجل عظمته، وبالانسان الانسحاق ليصير أليف الله. إن فعلنا هذا بفرح نحن ايضاً، على مثال القديس يوحنا المعمدان، فسنشرع بالترديد الى ما لا نهاية «ينبغي ان ذلك ينمو واني انا انقص» (يوحنا ٣: ٣٠).

١٣ – أعرف انساناً شغوفاً بمحبة الله، مع أنه كان يئنّ لعدم حبه اياه كما يشاء، وكانت نفسه على الدوام تضطرم شوقاً الى رؤية الله ممجَّداً فيه وهو كأنه لم يكن. إن هذا الانسان لا يعلم ما هو عليه، حتى عندما تمدحه الكلمات، لانه في توقه الشديد الى الانسحاق لا يذكر كرامته. إنه يتمّم الخدمة الالهية ككاهن طبقاً لشرعة الكهنة، ولكنه في استعداده الاقصى لمحبة الله يُخفي ذكر كرامته الكهنوتية في لجة تلك المحبة طامراً المجد الذي قد يناله منها في روح التواضع، فلا يبدو في عين نفسه وتقديره لذاته في كل حين سوى عبد بطّال، وكأن شغفه بالانسحاق يجرّده من كرامته. هذا ما

يجب ان نفعله نحن ايضاً لنهرب من كل تشريف ومجد لاجل فائق غنى محبّة الذي احبّنا بلا حدّ.

١٤ – من احبَّ الله من صميم القلب هذا قد عرفه الله (انظر ١ كور ٨: ٣). فأنه بالقدر الذي يتقبل فيه احدٌ محبة الله، في صميم النفس، يصير حبيب الله. لذا فان مثل هذا الانسان يغدو ولعاً باستنارة المعرفة حتى العظم ولا يعود يعرف ذاته بل يغيّره حب الله تغييراً كلياً. مثل هذا الانسان يكاد لا يكون في هذه الحياة لانه مع استمرار سكناه في الجسد يهاجر بحركة نفسه الى الله بالمحبة دون انقطاع ويبقى ملتصقاً به بقلب ملتهب بنار الحب دون هوادة في نوع من شوق لا يقاوَم. ذلك ان الحب الالهي قد اقتلعه مرّةً من حبّه لذاته «لاننا إن صرنا مختلّين فلله أو كنا عاقلين فلكم» كما يقول الرسول (٢ كور ٥: ١٣).

١٥ – متى بدأنا نشعر بغزارة فيض محبة الله حينئذ نبدأ، روحياً، بمحبة القريب ايضاً. فان هذه هي المحبة التي تتكلم عنها كل الاسفار. لان المودّة بحسب الجسد تنتفي بيُسر فائق لأقلّ سبب يطرأ اذ ليس رباطها رباط الحس الروحي. هكذا اذاً، حتى ولو استولى على النفس التي يفعل الله فيها نوع من غيظ، فانها لا تقطع رباط المحبة، لانها تضطرم من جديد بحرارة المحبة الالهية وسرعان ما تعود الى فعل الفضيلة وتتوخّى بفرح كبير محبة القريب، وان كانت قد قاست منه عظيم الاساءات او الشتائم، لانها تلاشي في عذوبة الله مرارة الخصام بالكلية.

١٦ – لا يمكن لاحد ان يحب الله من صميم القلب إن لم يبدأ اوّلاً بمخافته من كل القلب. فإن النفس بعد ان تتطهر بالخوف وتلين تأتي الى ممارسة المحبة. ولكنها لا تقدر على الوصول تماماً الى مخافة الله على الوجه الآنف الذكر إن لم تنعتق من كل الهموم الزمنية. فالذهن اذا ما صار في هدوء وزهد كبيرين تعذّبه حينذاك مخافة الله منقيّة اياه في العمق من كل

الكثافة الارضية لتقوده هكذا الى حب عظيم لصلاح الله. وبالتالي فالمخافة هي خاصة الذين لا يزالون يتطهرون وترافقها محبة متوسطة. وأما المحبة الكاملة فهي خاصةُ الذين تطهّروا ولا خوف فيهم من بعد، لان «المحبة الكاملة تطرد الخوف» (يوحنا الاولى ٤: ١٨). وكلتاهما لا يقتنيهما سوى الابرار الذين يمارسون الفضائل بإلهام الروح القدس. لذا فالكتاب يقول تارة: «اتقوا الرب يا جميع خاصّته» (مز ٣٣: ٩)، وتارة اخرى: «احبوا الرب يا جميع ابراره» (مز ٣٠: ٢٣)، لكي نتعلم جيداً ان الابرار الذين لا يزالون في طور التطهّر يقتنون المخافة مع محبة ضعيفة كما اسلفنا، في حين ان الذين قد تطهروا يقتنون المحبة الكاملة، اذ لم يعد فيهم اي فكر خوف بل اضطرام متواصل ونفس ملتصقة بالله على الدوام بفعل الروح القدس كما هو مكتوب: «التصقت نفسي بك وإيّاي عضدتْ يمينك» (مز ٦٢: ٨).

١٧ – كما ان جراحات الجسد اذا أُهملت طويلاً دون عناية لا تحسّ بأدوية الاطباء، أما اذا نُظّفت فتشعر بمفعول العلاج لتقدمها السريع نحو الشفاء من جرّائه، هكذا ايضاً النفس اذا ما بقيت دون اعتناء، محجوبة كلياً ببرص الاهواء، فانه لا يمكنها ان تشعر بخوف الله ولو هُدّدت بمحكمة الله القادرة الرهيبة دون انقطاع. أما اذا شرعت تتنقّى بكثرة انتباهها[1] تشعر حينئذ بالخوف الالهي كدواء حقيقي للحياة وكأنه يُحرقها في نار اللاهوى بفعل تقريعاته. عندها تطهر تدريجياً وتسير نحو تنقية كاملة، ناميةً في المحبة بالقدر عينه الذي تنقص به في المخافة. فتصل هكذا الى المحبة الكاملة حيث لا خوف كما قيل بل اللاهوى التام الذي يولّده الشوق الى مجد الله. فلكي نحظى بفرح الافراح الذي لا نهاية له لنَقْتَنِيَنَّ اذاً مخافة الله اولاً ثم المحبة

(١) او كثرة صلاتها، اذ ان كلمتي انتباه وصلاة في اليونانية متقاربتان وتختلف المخطوطات في إيراد هذه او تلك.

التي تُتم ناموس الكمال في المسيح (انظر روم ١٣: ١٠).

١٨ – النفس غير المتجرّدة من هموم هذا الدهر لن تحب الله محبةً اصيلة ولن تكره الشيطان بقدر ما يستحق، كونها مغمورة بثقل حجاب متطلبات الدنيا. وبالتالي فالذهن عند مثل هؤلاء الناس لا يقدر ان يتبيّن محكمته لكي يفحص امامها دون خطأ اصوات الاقتراع التي تسبق الحكم[1]. فالاختلاء اذاً مفيد في كل الاحوال.

١٩ – خاصة النفس النقية كلامٌ دون حسد وغيرةٌ دون خبث وحُبٌّ لرب المجد لا ينقطع. واذ ذاك يضبط الذهنُ ايضاً موازينه بدقة ماثلاً امام عقله كأنه امام محكمة كلية النزاهة.

٢٠ – الايمان بدون اعمال سوف يُرذَل كالاعمال بدون ايمان، اذ يجب ان يقدّم المؤمنُ للرب ايماناً يُظهر اعماله (انظر تيطس ٢: ١٠). لان ايمان ابينا ابراهيم نفسه لم يكن ليُحْسَب له براً لو لم يقرّب ابنه ثمراً لايمانه.

٢١ – من يحب الله يؤمن حقيقة ويتمم اعمال الايمان ببرّ. أما من يؤمن فقط وهو غير قائم في المحبة فليس له حتى الايمان الذي يبدو عليه. ففي ايمانه ضربٌ من الخفّة وهو لا يعمل بدافع ثقل المجد (انظر ٢ كور ٤: ١٧). فالايمان العامل بالمحبة هو اذاً كمال الفضيلة.

٢٢ – اذا ما فُحصَتْ لجّةُ الايمان تموّجتْ واضطربت، اما اذا عوينت ببساطة استكانت. هذا لان عمق الايمان هو ماء لنسيان الشرور، مثل نهر «الليثي»[2]، فلا يحتمل معاينته بأفكار فضولية. فلنبحر اذاً على مياهه

(١) هذه الجملة تفسرها المقالة التالية
(٢) احد انهر الجحيم في الميثولوجيا اليونانية يهب الاموات النسيان.

بفكر بسيط لنبلغ هكذا الى ميناء المشيئة الالهية (انظر مز ١٠٦: ٣٠).

٢٣ – لا احد يستطيع ان يحب او يؤمن حقاً ما لم يكن عليه مشتكٍ في ذاته. فعندما يضطرب الضمير لتقريعات المشتكي لا يتسنى للذهن تَنَشُّقُ رائحة الصالحات الفائقة العالم، بل ينقسم للتوّ مرتاباً، لانه، وان كان يلتمس الايمان بحرارة، مدفوعاً بخبرته السابقة، لا يعود قادراً على البلوغ اليه بحسّ القلب، ذلك لاجل وخز تأنيب الضمير كما سبق القول. لكن اذا ما تطهّرنا بصلاة اشد حرارة سوف نحظى بما نبتغي مع مزيد من الخبرة في الله.

في ازدواجيـــة النفس

٢٤ – كما ان الحواس الجسدية تجتذبنا بشيء من العنف الى ما يتراءى لنا جميلاً، كذلك من عادة الحسّ العقلي ان يقودنا الى الصالحات غير المنظورة اذا ما ذاق الصلاح الالهي (انظر مز ٨:٣٣). هذا لان كل شيء يتوق الى ما يجانسه، فالنفس العادمة الجسد الى الخيرات السماوية اما الجسد الطيني فالى الغذاء الارضي. لذا سوف نأتي دون خطأ الى خبرة الحسّ اللاهيولي اذا ما اضعفنا فينا الهيولى بأتعابنا.

٢٥ – إن فعل المعرفة المقدسة نفسه يعلّمنا ان هناك حسّاً طبيعياً واحداً للنفس قد انقسم الى فعلين بعد معصية آدم، إلاّ أن هناك حسّاً آخر بسيطاً يأتينا من الروح القدس ولا يمكن ان يعرفه غير الذين يزهدون طوعاً في خيرات هذه الحياة على رجاء الخيرات المستقبلية ويُذوون بالامساك كل شهوة الحواس الجسدية. في هؤلاء فقط يتحرك الذهن بكامل قدرته، بفضل انسلاخه، ويصبح قادراً على الاحساس بالصلاح الالهي على منوال لا ينطق به. ومن ثم ينقل فرحه هذا الى الجسد عينه، بمقدار تقدّمه، متهللاً بلا نهاية في اعترافه المفعم حباً (انظر مز ٤:٤١). «به استجار قلبي»، يقول المرنم، «فأجارني،

لذلك ارتاح جسدي فأنا احمده عن اختيار» (مز ٢٧: ٧). لأن الفرح الذي يملأ حقاً حينذاك النفس والجسد معاً هو تذكير صادق ثابت بالحياة غير الفاسدة.

في تمييـــز الارواح

٢٦ – على الذين يجاهدون ان يصونوا فكرهم دائماً من الاضطرابات لكي يتسنى للذهن تمييز الايحاءات الخاطرة له فيذّخر في كنوز الذاكرة الايحاءات الصالحة الآتية من الله ويطرد الايحاءات الشريرة الشيطانية خارج مخازن الطبيعة. فعندما يكون البحر هادئاً ينفذ نظر الصيادين حتى الى تحركات قعره فيكاد لا يخفى عليهم شيء من الكائنات التي تجوب دروبه. اما اذا كان البحر عاصفاً فانه يخفي في تموّجه المعتم ما يتباهى بابرازه في بسمة صحوه. اذ ذاك نشهد عجز حيل الصيادين في حرفتهم. هذا ما يحدث في كل الاحوال للذهن المتأمل امور الله، خاصة حين يكون قعر النفس مضطرباً من جرّاء غضب غير محق.

٢٧ – قليلون جداً هم الذين يَتَبَيَّنون بدقةٍ كل زلاّتهم. فان هذا فقط شأن الذين لا يتيحون لذهنهم الاقلاع ابداً عن ذكر الله. فعيوننا الجسدية، اذا ما كانت سليمة، قادرة على رؤية كل شيء حتى الذباب والبعوض الحائم في الهواء، اما اذا كانت تغطّيها غشاوة او رطوبة وتراءى لها شيء ضخم فهي تراه بشكل غامض، كما انها لا تبصر الاشياء الصغيرة الحجم. كذلك النفس ايضاً اذا ما أذوت بالانتباه والصلاة التعامي الناجم عن حب العالم فانها ترى اصغر الزلات كانها كبيرة جداً ولا تبرح تقدّم لله دموعاً فوق دموع في شكرها العظيم له. فانه مكتوب «فيحمد الصديقون لذلك اسمك» (مز ١٣٩: ١٣)، اما اذا بقيت على ميولها الدنيويّة فانها، وان اقترفت قتلاً او خطيئة تستوجب أقصى العذاب، فلا تشعر بها إلاّ قليلاً. اما بقية الزلات فلا يمكنها حتى ان تدل عليها، بل كثيراً ما تعتبرها فضائل ولا تستحيي الشقية ان تدافع عنها بحماسة.

٢٨ – لا تتمّ تنقية الذهن إلا بالروح القدس. فان لم يدخل القوي ويسلب السارق لن يُطلَقَ سبيل الفريسة قطعاً. فيجب اذاً ان نتيح للروح القدس بكل الوسائل وبسلام النفس خاصة ان يستقر فينا حتى يبقى مصباح المعرفة مضيئاً فينا على الدوام. لأنه اذا كان يسطع في كنوز النفس دون انقطاع فالذهن يرى جلياً كلَّ تجارب الشياطين الشرسة المظلمة بل تتناقص هذه التجارب كثيراً عندما يفاجئها ذلك النور الجليل المقدس. لذا يقول الرسول: «لا تطفئوا الروح» (١ تس ٥:١٩) اي حذار ان تحزنوا عظم لطف الروح القدس باعمالكم وافكاركم الرديئة حتى لا تحرموا ذلك البهاء الظافر. اذ ليس الكائن الازلي المعطي الحياة هو الذي ينطفىء بل حزنه، اعني ان ارتداده عنا يجعل الذهن في الظلام مجرَّداً من نور المعرفة.

٢٩ – ليس سوى حسّ طبيعي واحد للنفس كما سبق القول (اذ من المسلَّم به نهائياً ان الحواس الجسدية الخمس انما تتنوع لكي تطابق حاجات الجسد). هذا ما يعلّمنا اياه روح الله القدوس المحب البشر. لكنّ هذا الحسّ ينشطر تبعاً لحركات النفس عينها نتيجة ازدواج الذهن الناجم عن المعصية. لذا فان قسماً منه يتبع الجانب الشهواني فيستلذ طيبات الحياة. اما القسم الآخر فكثيراً ما ينعم بحركة النفس العاقلة الذكية. وبالتالي عندما نكون عقلاء يتوق ذهننا الى الارتقاء نحو الجمالات السماوية. فاذا اكتسبنا عادة نبذ رباطات هذا العالم على منوال ثابت سوف نتمكن ايضاً من ان نُتحد شهوة النفس الارضية بميولها العاقلة وذلك بنعمة الروح القدس الذي يدبّر الامر لأجلنا. فان لم يُنِرْ لاهوته كنوز قلبنا على وجه ناجع فلن نستطيع ان نذوق ما هو صالح بحسّنا الواحد غير المنقسم، اي في استعدادٍ للنفس كامل.

٣٠ – بحاسة الذهن نتذوق بدقة ما نميّزه. فكما اننا، حين نكون أصحاء، نميّز بحاسة الذوق الجسدي ما هو طيّب مما هو رديء دون خطأ فنبادر الى ما هو طيّب، كذلك عندما يبدأ ذهننا بالتّحرك في صحة تامة

وتجرّد كبير يمكنه ان يحسّ بوفرة التعزية الالهية ولا ينجذب ابداً الى التعزية المضادّة. فكما ان الجسد عند تذوّقه طيّبات الارض لا يخطىء في خبرة الحواس هذه كذلك الذهن ايضاً عندما يتهلّل متخطياً مشورات الجسد يستطيع ان يذوق تعزية الروح القدس على وجه لا يقبل الخطأ، اذ انه مكتوب: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» (مز ٣٣: ٨)، كما يستطيع ان يحفظ بالمحبة ذكراً ثابتاً لا يمحى لذلك الطعم بتمييزه ما الأفضل، بمنأى عن اي غلط، وفق قول الرسول: «وهذا ما أصليه ان تزداد محبتكم ايضا اكثر فأكثر في المعرفة وفي كل فهم حتى تميّزوا ما الافضل» (في ١: ٩ – ١٠)

٣١ – عندما يبدأ الذهن بالاحساس بتعزية الروح القدس يعمد الشيطان ايضاً الى تعزية النفس فيجعلها تشعر بعذوبة كاذبة في سكون الليل حين استسلامنا لسبات خفيف جداً. وان وُجد الذهن وقتئذ ملتصقاً بقوة باسم الرب يسوع المقدس وذاكراً اياه بحرارة، متسلحاً بهذا الاسم الجليل المقدس ضد الوهم والخداع، يتخلى الغاش عندها عن احتياله ويعمد الى محاربة النفس محاربة مباشرة. ومن ثم تتبيّن للذهن تماماً خدعة الشرير فيزداد خبرة في التمييز.

٣٢ – تحصل التعزية الصالحة حين يكون الجسد ساهراً، او حتى عندما تبدأ فتظهر عليه علامات نعاس قريب فيما نحن ملتصقون بحب الله في ذكر له حارّ. اما التعزية الوهمية فهي على العكس من ذلك تحصل دائماً حين يكون المجاهد، كما سبق فقلت[1]، قد دخل في سبات خفيف وهو يذكر الله بفتور. فمن عادة التعزية الاولى ما دامت صادرة عن الله، ان تدعو جلياً نفوس ابطال التقوى الى حبّه في انسكاب للنفس كبير. اما التعزية الاخرى التي اعتادت ان تهيّج النفس بريح مضلّة فتحاول استغلال نوم الجسد لتسلب

(١) انظر المقالة ٣١

الذهن خبرة حسّه المحتفظ بذكر الله تاماً. فاذا ما صادفت هذه التجربة الذهن متّحداً بذكر الرب يسوع بانتباه ويقظة كما سبق القول فهو يبدّد ريح العدو الزائفة العذوبة ويبادر بفرح الى محاربته، متسلّحاً، الى جانب سلاح النعمة الاول، بفخر خبرته.

٣٣ – اذا ما التهبت النفس بحب الله بتحرك سليم خالٍ من التخيّلات وكأنها تجتذب الجسد نفسه الى عمق ذلك الحبّ الذي لا يوصف، سواءً كان من يقتبل فعل النعمة الالهية مستيقظاً او موشكاً على النوم على الوجه الآنف الذكر، حين لا تعود النفس تدرك إطلاقاً إلاّ ما هي منجذبة اليه، فلنعلم ان هذا هو من فعل الروح القدس. لانها اذا ما تملأت كليّاً بتلك العذوبة التي لا ينطق بها لا يعود يمكنها التفكير بأيّ شيء آخر، لان فرحاً ثابتاً متواصلاً يفتنها ويخلبها. امّا اذا ارتسم في الذهن وهو على هذه الحال ايُّ شكٍ او ايُّ فكرٍ غير نقي، حتى ولو دعا بالاسم القدوس (لا حباً بالله فقط وانما ليطرد الشرير)، فيجب ان نعلم ان هذه التعزية تصدر عن الغاش في مظهر الفرح وان ذلك الفرح المشوش المبهم انما يأتي من العدو الراغب في جرّ النفس الى الزنا.فالعدو عندما يرى الذهن فخوراً بخبرة إحساسه حينئذ – واكرر – يغري النفس بتعزيات حسنة في الظاهر لئلا تشعر بان الشرير هو الذي يتّحد بها بعد ان تكون قد انتشت بفعل تلك العذوبة الهشّة الباطلة. في ضوء ذلك سوف نتبيّن اذاً روح الحق وروح الغش والباطل. وانه لمن المتعذر علينا في الحقيقة ان نذوق بالحاسة الداخلية الصلاح الالهي، كما يتعذّر علينا ان نحسّ بمرارة الشياطين، ما لم نقتنع كليّاً بان النعمة تحلّ في اعماق النفس، في حين ان الارواح الشريرة تحوم فقط حول اعضاء القلب، وهذا ما لا يريد الشياطين ابداً ان يتركوا الناس يعتقدونه لئلا يعمد الذهن المتنبه للامر الى التسلّح ضدّهم بذكر الله.

٣٤ – حبّ النفس الطبيعي شيء والحب الذي من الروح

القدس شيء آخر. فالحب الاول نستثيره الى حد ما بارادتنا متى شئنا، ولذا يسهل على الارواح الشريرة انتزاعه منا حين لا نتمسك بمبتغانا كل التمسك. اما الحب الآخر فيلهب النفس بحب الله حتى التصاق طيّاتها كلها بعذوبة الشوق الاهلي وذلك بصورة لا توصف وفي بساطة حال لا تحدّ، لان الذهن حينذاك يكون وكأنه قد أُمرع بالحياة الروحية فيفيض محبة وفرحاً.

٣٥ – كما ان البحر عندما يُسكب عليه الزيت ابان العاصفة يستسلم بطبيعته لمفعول الزيت الذي يظفر بتموجاته، كذلك النفس ايضاً عندما تحظى بمسحة لطف الروح القدس تُسَرّ بأن تهدأ. وهي تستسلم طوعاً وبفرح لتلك العذوبة الهادئة التي تظلّلها والتي لا ينطق بها (انظر لوقا ١:٣٥)، كقول القديس: «استسلمي يا نفسي لله» (مز ٦١: ٥). ولذا مهما كثرت استفزازات الشياطين تبقى النفس ساكنة لا غضب فيها ومفعمة بكل فرح. واننا ندخل، او نستمر في تلك الحالة، اذا ما سكّنّا نفسنا دون انقطاع بمخافة الله. لان مخافة الرب يسوع تمدّ المجاهدين بنوع من عفة وطهارة، اذ ان «مخافة الرب طاهرة ثابتة الى ابد الابدين» (مز ١٨:٩).

في الرؤى والاحلام

٣٦ – لا يخطرنّ لاحد اذا ما سمع بحديث عن حسّ الذهن ان يرجو ظهور مجد الله له بصورة منظورة. فنحن نقول اننا، ان كانت نفسنا نقية، نذوق التعزية الالهية بصورة لا يُنطق بها، ولكننا لا نقول ان شيئا ما غير منظور يتراءى لها، اذ «اننا نسلك بالايمان لا بالعيان» كما يقول الرسول المغبوط بولس (٢ كور ٥:٧). فاذا ما تراءى لاحد المجاهدين نور او هيئة ناريّة فلا يقبلنّ مثل هذه الرؤيا، اذ من الواضح انها خدعة من فعل العدو، وكثيرون لما انخدعوا بها ضلّوا لجهلهم وحادوا عن الحق. «أما نحن فنعلم اننا ما دمنا مستوطنين في هذا الجسد الفاني نبقى متغرّبين بعيدين عن الله» (انظر ٢ كور ٥:٦)، اي اننا لا نقدر ان نراه بشكل منظور لا هو ولا شيئاً

من معجزاته السماوية.

٣٧ – ان الاحلام التي تتراءى للنفس في محبتها لله دلالة ثابتة على سلامتها. لذا فان تلك الاحلام لا تنتقل من صورة الى صورة ولا تُرهب الحسّ ولا تضحك ولا تُعبّس فجأةً، بل تُقبل الى النفس بكل كياسة، مفعمةً اياها بهجة روحية، وبعدها تستمر النفس، عند استيقاظ الجسد، في التماس فرح الحلم بشوق حارّ. أما ظهورات الشياطين فتسلك سلوكاً معاكساً تماماً. انهم لا يبقون على هيئة واحدة ولا يظهرون طويلاً على شكل ثابت لا يتغير. لان ما لا يحوونه بارادتهم بل يستعيرونه فقط من اوهام سحرهم لا يقدر ان يثبت طويلاً. فانهم يتكلمون عالياً ويهددون بالعظائم متنكرّين في هيئة جنود مرّاتٍ كثيرة، واحياناً يرهقون النفس بصيحاتهم. عندئذ يعرفهم الذهن النقي فيوقظ الجسد بالمخيّلة، وفي مراتٍ اخرى يفرح لانه عرف ان يتبيّن حيلهم. ولذا حين يفضحهم في سياق الحلم نفسه يثير فيهم في معظم الاحيان غضباً عظيماً. غير انه يتفق ان الاحلام الصالحة نفسها لا تجلب للنفس فرحاً بل حزناً مستطاباً ودموعاً بدون ألم. هذه حال الذين يتقدّمون كثيراً في الاتضاع.

٣٨ – لقد اوردنا التمييز بين الاحلام الصالحة والاحلام الشريرة على ما تعلّمناه ممن خبروه. أما نحن فيجب ان نرتضي ونحتسب عدم الركون الى اي حلم اطلاقاً فضيلة كبرى، اذ ليست الاحلام في معظم الاوقات سوى صور لافكار هائمة او خدع شيطانية كما سبق القول. وحتى اذا اتفق ان يبعث الله لنا برؤيا لكثرة صلاحه ولم نقبلها فان ربنا الحبيب يسوع لن يسخط علينا لذلك. انه يعرف جيداً ان حبائل الشياطين هي التي تملي علينا هذا الموقف.. فان التمييز الذي اوردت آنفاً دقيقٌ هو ولكن يتفق احياناً للنفس المتدنّسة لتساهلها تساهلاً لا تعيه لساعته – وهذا ما لا يُعصم منه احد – ان تفقد رسم التمييز الصحيح وتعدّ الاحلام الشريرة أحلاماً صالحة.

٣٩ – لنضرب مثلاً على ذلك عبداً يناديه سيّده في الليل من خارج سياج المنزل عند عودته من سفر طويل. لقد رفض العبد رفضاً قاطعاً فتح الابواب اذ خشي ان يخدعه تشابه الاصوات فيُسلب ما اودعه سيده لديه. فمتى طلع النهار ليس فقط لا يسخط سيده عليه بل يحسبه جديراً بكل ثناء لاشتباهه بأن صوت سيده نفسه قد يكون وهمياً وهو انما يفعل ذلك مدفوعاً بعزمه على ألاّ يدع شيئاً من املاكه يُفقد.

٤٠ – لا نشكّنَّ في ان الذهن متى بدأ يتأثر مراراً بالنور الالهي يصير كله شفّافاً حتى انه يعاين بذاته وفرة نوره. يقولون ان هذا يتمّ حين تقوى النفس على الاهواء. أما ان يكون كل ما يتراءى له بشكل نورٍ او نارٍ صادراً عن مكر العدو فان هذا ما يعلّمنا اياه بولس الالهي بوضوح بقوله: «ان الشيطان يغيّر شكله الى شبه ملاك نور» (٢ كور ١٤:١١). فيجب اذاً ألاّ نأتي الى الحياة النسكيّة على هذا الرجاء لئلا يجد ابليسُ النفسَ مهيّأةً لاستيلائه عليها. فالغاية الوحيدة انما هي البلوغ الى محبة الله في احساس كليّ بيقين القلب اي «من كل القلب وكل النفس وكل الفكر» (لوقا ٢٧:١٠)، لان الذي تدفعه الى ذلك نعمة الله يحيا بعيداً عن العالم وان كان عائشاً في العالم.

في الطاعة

٤١ – الطاعة هي كما هو معلوم الخير الاول بين سائر فضائل المسيرة الروحية، لانها تبدأ فتُقصي الغرور وتلد الاتضاع، ومن ثم تصبح لمن يرتضونها مدخلاً الى محبة الله.: لما نبذها آدم انزلق الى اعماق طرطروس، ولما أحبّها الرب وفقاً لمخطط التدبير الالهي اطاع اباه حتى الصلب والموت – مع انه لم يكن دون جلال الآب بشيء. ذلك لكيما يُبطل بطاعته تهمة العصيان اللاصقة بالجنس البشري ويعيد الى الحياة السعيدة الابدية من يعيشون بالطاعة. فيجب بالتالي ان يهتم بها قبل أي شيء آخر الذين يباشرون الجهاد

ضد الغرور الشيطاني، لانها سوف تدلّنا وبدون خطأ، بقدر تقدّمنا فيها، على كل دروب الفضائل.

في الطاعة والعفة

٤٢ – العفّة (او الامساك) اسم مشترك لسائر الفضائل. فيقتضي بالتالي ان يعفّ المجاهد في كل شيء (انظر ١ كور ٩ :٢٥). فكما ان بتر أي عضو من أعضاء الانسان مهما كان صغيراً يشوّه الانسان كله، حتى وان لم ينقص منه الاّ القليل، كذلك ايضاً من يهمل فضيلة واحدة ينقض الى حدّ لا يعلمه كل جمال العفّة. فينبغي اذاً ألاّ ننمي الفضائل الجسدية فقط بل ايضاً الفضائل التي بمقدورها ان تنقّي انساننا الداخلي. اذ ماذا ينتفع مَنْ حفظ جسده بتولاً انْ ترك شيطان عدم الطاعة يوقعه في الزنا؟ أو كيف يمكن ان يكلَّل من يتجنّب الشراهة وكل شهوة جسدية ولكنه لا يبالي بالعُجب والغرور ولا يحتمل معاناة محنة قصيرة في حين يقتضي ان يكافىء ميزانُ نور البر بالمقدار نفسه الذين قد مارسوا اعمال البر بروح التواضع؟

الاعتدال في تناول الطعام

٤٣ – على المجاهدين تدريب انفسهم على بغض الشهوات الجسدية حتى يكتسبوا عادة هذا البغض. أما الاطعمة فيجب في امساكنا ألا نأتي يوماً الى كره أي منها، فهذا الامر شنيع وشيطاني. لاننا لا نمسك عن الاطعمة كشيء رديء، لا سمح الله، لكن لكيما باقلاعنا عن الاطعمة الكثيرة واللذيذة نكبح كما ينبغي غليان الجسد الملتهب، وليتسنّى لنا من ثم ان نوزّع على الفقراء بكفايةٍ ما يفيض عنا، وفي هذا علامة محبة صادقة.

٤٤ – ان الاكل والشرب، بشكرٍ، من كل ما يُقدّم او يُمزج لا يتعارض ابداً وأصول المعرفة لان كل شيء «حسنٌ جداً» (تك ١:٣١) أما الامتناع الطوعي عن الطعام الشهيّ وعن الاكثار منه فيدلّ على تمييز كبير

ومعرفة وافرة. فنحن لا نرذل بسهولة طيّبات هذه الحياة ان كنا لا نتذوّق عذوبة الله باحساسٍ تام بالملء.

٤٥ – كما ان الجسد اذا تثقّل بكثرة الاطعمة يجعل الذهن جباناً وكسولاً، كذلك ايضاً اذا أُرهق بامساك مفرط فانه يُدخل الى القسم التأملي في النفس الحزن والاشمئزاز من الكلام في الله. فعلينا اذاً تحديد الطعام طبقاً لحركات الجسد حتى يهذَّب كما يجب ان كان صحيحاً او يغذّى كما ينبغي ان كان ضعيفاً. اذ يجب ألاّ يكون المجاهد هزيل الجسم بل ان يمتلك القوة الكافية للجهاد لتنقّى النفسُ كما يليق حتى في أتعاب الجسد.

٤٦ – عندما يثور علينا المجدُ الباطل ويموج مغتنماً مناسبة وصول بعض الاخوة او أي ضيوف آخرين ليبثّ شرّه، يحسن ان نخفّف نظام امساكنا على وجه موافق. فاننا بهذا نردّ الشيطان خازياً بل حزيناً لفشله، ونُتمّ شرعة المحبة بتمييزٍ، وبمؤاكلتنا للضيوف نحفظ سر امساكنا بعيداً عن الظهور.

٤٧ – للصوم فخر لذاته لا لدى الله، اذ هو نوع من اداة لترويض طالبي العفّة. فيجب اذاً ألاّ يكون للمجاهدين مدعاة للتباهي بل فلينتظروا ادراك الغاية المبتغاة منه مؤمنين بالله، لان ذوي الحرف، أيّاً كانت حرفتهم، لا يسندون ابداً فخر نجاحهم المهني الى ادواتهم ووسائلهم بل ينتظر كلٌّ منهم اتخاذ مشروعه شكله الاخير ليُظهر كمال فنّه.

الاعتدال في شرب الخمر

٤٨ – كما ان الارض اذا ما سُقيْت باعتدال تجعل البذرة الملقاة فيها تنبت من تلقاء ذاتها وتثمر ثمراً وافراً، بينما اذا اغرقتها الامطار الغزيرة لا تُطلع سوى العلّيق والشوك، كذلك ايضاً ارض القلب، اذا ما شربنا الخمر باعتدال، لا تنبت غير بذورها الطبيعة، وتُطلع بخصب وفير ما يزرعه فيها الروح القدس. امّا اذا نُقعت في خمر كثير فالافكار التي تخطر لها لا

تكون كلها في الحقيقة سوى علّيق وشوك.

٤٩ – عندما يغوص الذهن في فيض الخمر لا تتوقف نظراته الشهوانية عند الصور التي يُدعها له الشياطين اثناء النوم وحسب، بل ينشىء لذاته صور اشياء جميلة ويتعاطى مع تخيّلاته هائماً بها كنساء حبيبات.

لانه اذا ما سخّن غليانُ الخمر الاعضاء التناسلية تصوّر الذهن لا محالة طيف تلك الشهوانية المستلذة. يجب اذاً الاعتدال في شرب الخمر درءاً لضرر الاسراف في تناوله. فان الذهن عندما لا يحسّ بلذةٍ تستدرجه الى تصوير الخطيئة لا يأتي الى التخيّل وبالتالي لا يسترخي.

٥٠ – على الملتمسين ضبط هيجان جسمهم ألاّ يطلبوا المشروبات الروحية التي يُعدّها المتخصّصون ويسمّونها مشهّيات للاكل، ربما لانها تذهب بكتلة الاطعمة الى المعدة. فليست خاصّيتها مؤذية لجسم المجاهد وحسب بل ايضاً خليطها المصطنع يهزّ بكثير من العنف الوجدان حيث يستريح الله. فما الذي ينقص طبيعة الخمر حتى يُعمَد الى تليين قوّتها باضافة توابل مختلفة اليها؟

٥١ – ان يسوع المسيح ربنا ومعلّمنا في هذه السيرة المقدسة قد سقاه منفذّو الاوامر الشيطانية خلاً حين آلامه لكي يرسم، كما يبدو، صورة واضحة عن الاستعداد اللازم للحروب الروحية المقدسة، فيقول انه على محاربي الخطيئة ألا يتناولوا مشروبات روحية او اطعمة طيّبة المذاق بل ان يحتملوا بصبرٍ مرارة المعركة. أما اضافة الزوفى المطهّرة الى اسفنجة الهوان فلكي تنطبق اداة تطهيرنا تماماً على النموذج. فما هو مرّ ينطبق على المعركة وما يطهّر على ما تحقّقه، ولا شك في ذلك.

الاستحمام

٥٢ – لن يزعم احدٌ ان الاستحمام خطيئة او انحراف عن

الصواب. غير اني اقول ان الامتناع عنه على سبيل الامساك دليل شجاعة وعفة قصوى. لان جسمنا عند ذاك لا يتأنّث بتأثير هذا الاغتسال المستلذ، كما لا نأتي بسببه الى ذكر عري آدم الشائن فنهتمّ بأوراقه لتغطية علّة خجلنا، نحن خاصة الذين هربنا جديداً من مفاسد الحياة والذين علينا ان نتّحد بجمال العفّة عن طريق طهارة الجسد.

في الافادة من الامراض

٥٣ – ما من شيء يمنع استدعاء الاطبّاء في حال المرض لان الادوية انما وُجدت مسبقاً لهذه الغاية حيث كان على حذاقة البشر استحداث هذا الفن يوماً. ولكن يجب ألاّ نضع رجاء الشفاء على الادوية بل على مخلصنا وطبيبنا الحقيقي يسوع المسيح. اقول هذا للذين يتمّمون سعي الامساك في شركات رهبانية او في المدن، لانه لا يتسنّى لهم دائماً، بسبب وضعهم، ممارسة ايمانهم العامل بالمحبة (غلا ٦:٥)، وخاصة لئلا يقعوا في العُجْب وتجارب ابليس (١ تيم ٦:٣) تلك التي تدفع بعضهم الى التباهي امام الملأ بعدم حاجتهم الى الاطباء. أما المتوحّد في مكان قفر، مع اثنين او ثلاثة من الاخوة ذوي الاستعداد عينه، فليلجأ الى السيّد وحده الذي يشفي كل مرض وكل ضعف (متّى ٢٣:٤) وليفعل ذلك أيّاً كانت الآلام التي تلمّ به، لان الوحدة عينها هي لنا بعد الرب تعزيةٌ فعّالة في الأمراض. ان انساناً مثل هذا لا تنقصه الفرصة ابداً لممارسة ايمانه، سيّما أنّ لا مجال له لإظهار صبره والتباهي به وأن الوحدة هي له بمثابة سترٍ صالح. لذلك «يسكّن الربُ المتوحدين في بيته» (مز ٦:٦٧).

٥٤ – اذا كنا نكره جداً الانحرافات الصحّية التي تُلمّ بنا فلنعلم ان نفسنا لا زالت مستعبدة لشهوات الجسد. لذا فهي، اذ تتأسف على الراحة المادية، لا تشاء ان تتخلّى عن رفاهيات الحياة، بل تحتسب عجزها عن التمتع بها من جرّاء المرض مدعاة لغمّ كبير. أما اذا تقبّلتْ آلام المرض بالشكر فهي تُظهر انها غير بعيدة عن تخوم اللاهوى. لذا تستقبل اذ ذاك الموت نفسه

بفرح كمدخل لحياة اكثر حقيقية.

في عدم الاكتراث بما يجري

٥٥ – لن ترتضي النفس الانفصال عن الجسد ما لم يتحوّل حبّها للهواء الذي تتنشّق الى عدم اكتراث. ذلك ان حواس الجسد كلها تقاوم الايمان حيث انها تتعلق بالحاضر في حين ان الايمان يَعِد بغنى الخيرات المستقبلية فقط. فلا يُبالينّ المجاهد اذاً فيما بعد بأشجار ذات اغصان جميلة او ظلّ وفير، او ينابيع عذبة المياه وحقول متنوِّعة الالوان وبيوت انيقة او ايضاً بزيارات لذويه، ولا يتذكّرنّ مناسبات تشريف المجتمع وتكريمه له، بل فليستعمل بشكر ما هو ضروري ويحسب الحياة درباً، في بلد غريب، مقفراً من كل مودَّة جسدية. على هذه الصورة فقط نضيّق على فكرنا (انظر متّى ٧:١٤) ونجعله يسلك كلّياً الطريق الابدية.

٥٦ – أن يكون الاستعمال المسرف للنظر والذوق وبقية الحواس مصدر تشتيت لذاكرة القلب هذا ما تعظنا به حوّاء الاولى. فحواء هذه حين لم تكن قد تطلّعت بعد بلذة الى الشجرة المحظورة كانت تتذكر الوصية الالهية بحرص، ولذا ايضاً كانت وكأنها تأوي تحت جناحي المحبة الالهية غير واعية لعريها. ولكنها حين نظرت الى العود بلذّة ولمسته بشهية، ثم ذاقت ثمرته بغاية الشهوة، شعرتْ للحال بأنها مجتذَبة الى المعانقة الجسدية، وبدافع عريها استسلمت للهوى فوجّهت كل اشواقها الى التنعّم بالحاضر، واشركت آدم في خطيئتها من خلال حسن منظر الثمرة، اذ لا يمكن للذهن البشري في حالة كهذه ان يذكر الله ووصاياه الا بصعوبة. أما نحن فلنشخصنّ بنظرنا دائماً الى اعماق قلوبنا ذاكرين الله ذكراً لا ينقطع ولنعش كعميان في هذه الحياة الخدّاعة، لأن خاصة الفلسفة الروحية الحقيقية ان نحفظ اجنحتنا مقصوصة بازاء محبّة المنظورات. هذا ما يعلّمنا ايّاه ايضاً ايوب الصدّيق بخبرته العظيمة حين يقول: «إنْ اتّبع قلبي هوى عينيَّ...» (أي ٧:١٣). في هذا المسلك كما

نرى دلالة على امساك أقصى.

٥٧ – من مكث في قلبه على الدوام تغرّب كلّياً عن مغريات الحياة (انظر ٢ كور ٥: ٨). إنه يسلك بالروح (غلا ٥: ٢٥) ولا يقدر أن يعرف شهوات الجسد. مثل هذا الانسان يتخطّر في حصن الفضائل التي هي بمثابة حراس لقلعة عفته. ولذا لا تعود آلات الشياطين تقوى على شيء ضدّه حتى ولو وصلت سهام الحب الجسدي الى مرامي الطبيعة.

في الضجر

٥٨ – متى أخذت نفسُنا تكفّ عن اشتهاء طيّبات الارض حينئذ يتسلّل اليها عادة روحُ ضجر، وهذا الروح لا يعود يتيح لها الانصراف الى خدمة الكلمة بفرح ويقطع عنها أيضاً التوق بإفراط الى الخيرات المستقبلية، كما يدفعها الى استصغار هذه الحياة الوقتيّة بحجة خلوّها من الاعمال الفاضلة ويجعلها بالتالي تحتقر المعرفة نفسها بداعي انها أعطيت قبل الآن الى كثيرين آخرين، او لانها لا تألو الى تعليمنا اي شيء كامل. سوف نُفلت من شعور الفتور والجبن هذا إنْ حصرنا فكرنا في حدود ضيّقة جداً ووجّهنا نظرنا الى ذكر الله وحده. هكذا فقط يعود الذهن سريعاً الى حرارته ويمكنه التحرّر من هذا التشتّت الغاشم.

٥٩ – عندما نُغلق على الذهن كلَّ مخارجه بذكر الله يتطلب منا قطعاً عملاً يرضي حاجته الى العمل. فيقتضي اذاً اعطاؤه «الرب يسوع» عملاً وحيداً يلبّي غايته بصورة كاملة. فقد كُتب: «لا احد يقدر ان يقول يسوع ربٌّ إلا بالروح القدس» (اكور ١٢: ٣). ولكن عليه ان لا يتأمل على الدوام في كنوزه الداخلية سوى هذه العبارة فقط دون غيرها فلا يحيد عنها اطلاقاً الى اي تصوّر كان. فان جميع الذين يتأملون في اعماق قلوبهم بهذا الاسم الجليل الاقدس وبدون انقطاع، هؤلاء يستطيعون يوماً مشاهدة

نور ذهنهم عينه ايضاً. لانه اذا ما أبقي اسمُ يسوع بالفكر في اعماق القلب باهتمام شديد فهو يُحرق، في شعور حاد، كلَّ الدنس الذي يغشى سطحَ النفس، فانه مكتوب «إلهنا نار آكلة» (تث ٤: ٢٤ وعب ١٢: ٢٩). بعد ذلك يدعو الربُ النفس الى محبة مجده محبةً عظيمة لان ذلك الاسم الجليل والمشوق اليه جداً، اذا ما ثبت بواسطة ذاكرة الذهن في حرارة القلب، يرسّخ فينا عادة محبة صلاحه دون أن يعارضها شيء فيما بعد. فهذه هي اللؤلؤة الثمينة التي يمكننا شراؤها اذا بعنا كل ما نملك لكي ننعم عند وجودها بفرح لا يوصف (انظر متى ١٣: ٤٦).

٦٠ – فرح البداية شيء والفرح الكامل الاخير شيء آخر. الاول لا يخلو من الخُيَلاء أمّا الاخير فله قوة التواضع، وبين الاثنين يقوم حزن مبارك (انظر ٢ كور ٧: ١٠) ودموع دون ألم. لانه بالحقيقة «في كثرة الحكمة كثرة الغم» «ومن ازداد علماً ازداد كرباً» (الجامعة ١: ١٨). لهذا السبب ينبغي ان تُستدعى النفس أوّلاً الى القتالات الروحية بدافع الفرح الاول ثم ان توبّخها حقيقة الروح القدس وتمحّصها من اجل الشر الذي صنعتْ أو حتى الاباطيل التي لا تزال تتعاطاها. فقد قيل: «انت تؤدّب الانسانَ على الاثم بالتوبيخ وتمحق حياته كبيت العنكبوت» (مز ٣٨: ١١). وهكذا بعد ان يكون التبكيت الالهي قد محّصها تمحيص الأتون تكتسب النفسُ في ذكرٍ حارٍ لله قوةَ فرح خالٍ من التصوّرات.

٦١ – عندما تكون النفس مضطربةً بالغضب او مشوّشة بالسكر او مثقلة باليأس، لا يقدر الذهن، مهما عُنِّف، ان يضبط ذكر الرب يسوع. لانه يكون مظلماً من جرّاء حدّة الاهواء فيتغرّب كلياً عن حسّه لذا حين تقسو ذاكرة الذهن بتأثير شراسة الاهواء فان الشوق لرؤية الذهن ممهوراً بطابع التأمل مهراً لا يُمحى لا يجد اين يطبع خاتمه. أما اذا كانت ذاكرة الذهن بالعكس حرّة من الاهواء، حتى ولو غاب عنها لحظة موضوعُ اشتياقها

بسبب النسيان، فإن الذهن يعود سريعاً الى عمله ويستولي بحرارة على تلك الغنيمة الخلاصية المشتهاة. لان النفس حينذاك تضبط النعمة نفسها التي تتأمل معها وتصرخ صلاة «الرب يسوع». ذلك كما تُعلّم ألأمُّ طفلها لفظة «بابا» مردّدةً اياها معه حتى تبلغ به الى اعتياد مناداة ابيه بوضوح حتى اثناء النوم، بدلاً من ترداده لأيّة كلمات طفليّة اخرى. لذا يقول الرسول: «وكذلك الروحُ ايضاً يعين ضعفاتنا لاننا لسنا نعلم ان نصلّي كما ينبغي ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأناتٍ لا يُنطق بها» (رو ٨: ٢٦). هذا لاننا، كوننا اطفالاً نسبةً الى كمال فضيلةِ الصلاة، لا بد لنا على الاطلاق من معونة الروح حتى يتشرّب كلُ تفكيرنا عذوبته التي لا توصف فيَرِقّ، وهكذا نُقبل من كل قلبنا على ذكر الله ابينا ومحبته. على هذه الصورة نصرخُ بالروح، عندما يضبط لنا هو الايقاع لمناداة الله الآب بدون انقطاع، قائلين كما يهتف بولس الالهي ايضاً: «يا أبا الآب» (رو ٨: ١٥) أي الآب.

في فائدة الغضب

٦٢ – من عادة الغضب ان يعكّر النفس ويقلقها اكثر من الاهواء الاخرى، ولكنه يخدمها أحياناً اعظم خدمة. فاننا عندما نستعمله بهدوء ضد الملحدين، او أي خطأةٍ آخرين لنخلصهم أو نُفحمهم، نُكسِبُ النفسَ مزيداً من الوداعة، لاننا نسهم على كل حال في ابتغاء العدل والصلاح الالهيين. بل نحن، عندما تثور ثائرتنا ضد الخطيئة، كثيراً ما نحوّل الى شهامةٍ رجولية ما في النفس من ضعف أنثوي. ومن جهة اخرى لا ريب في اننا اذا كنا في حالة من اليأس وارتعشنا بالروح ضد شيطان الهلاك سوف نزدري تبجّحات الموت. ولكي يعلّمنا هذا فقد ارتعش الرب نفسه مرّتين واضطرب لدى مواجهته الجحيم، وإن كان قد أتمّ كل ما شاء بمجرّد إرادته دون ان يضطرب، وهكذا أرجع نفس لعازر الى جسده (يو ١١: ٣٣ وما بعدها). وبالتالي فانّ خالقنا على ما أرى انما اعطانا الغضب المعتدل بالاحرى كسلاح. ولو استعملته حوّاء

ضد الحيّة لما كانت خضعت للّذة الشهوانية. فمن يستخدم الغضب باعتدال دفاعاً عن الدين سوف يوجد اذاً في ميزان المجازاة بلا شك افضل معدناً من الذي لا يتحرك ابداً بالغضب لبلادته. فواضح ان هذا الاخير انما يقتني لقيادة مركبة مشاعره البشرية حُوذيّاً غير متمرّن. في حين ان الاول، الحاضر ابداً في الميدان، تحمله خيلُ الفضائل الى وسط الجيش الشيطاني، يجتذب الى مخافة الله عربة الامساك ذات رؤوس الخيل الاربعة. تلك هي «مركبة اسرائيل» التي نجدها مُسمَّاةً هكذا في الكتاب المقدس عند ارتقاء ايليا الالهي. لذا يبدو ان الله قد كلّم اليهود اوّلاً بوضوح عن الفضائل الاربع، بل لاجل هذا رُفع على مركبة نارية ربيب الحكمة الشهير وكأنه في امساكه اتّخذ فضائله على ما يتراءى لي بمثابة خيل نارية حين رفعه الروحُ في العاصفة نحو السماء (٤ مل٢: ١١).

في التجرد والفقر

٦٣ – على من نال نصيباً من المعرفة المقدّسة وذاق عذوبة الله أن لا يدافع عن نفسه في المحاكم ولا يقاضي أحداً، حتى ولو جرّدوه من ثيابه. فإن عدالة سلاطين هذا العالم هي دون عدالة الله على الاطلاق، بل ليست بالاحرى شيئاً مقابلها. والا فما الفارق بين أتباع الله وأتباع هذا الدهر إن كان حق هؤلاء لا يتبين ناقصاً بإزاء حق اولئك، حتى انه يُحكى في الحالة الاولى عن الحقوق البشرية وفي الحالة الثانية عن العدالة الالهية؟ على هذا المنوال فربنا يسوع «اذ شُتِمَ لم يكن يَشتم عوضاً وإذ تألم لم يكن يهدد» (بطرس الاولى ٢: ٢٣)، بل احتمل ان يعرّوه من ثيابه وهو صامت، واكثر من ذلك فقد ذهب الى ان يلتمس من أبيه خلاص المجرمين. أمّا أناس هذا العالم فما كانوا ليوقفوا دعاويهم لو لم يكونوا قد استعادوا مع رباً أحياناً الاملاك التي من اجلها يتقاضون، خاصةً حين يحصّلون الفوائد قبل استرجاع الدَين، حتى إن الحق كثيراً ما يصير على هذا الوجه فرصة سانحة لهم ليظلموا الآخرين

باجحاف.

٦٤ – سوف يقال مع بعض الناس الاتقياء إنه يجب ألاّ ندع أياً كان يجرّدنا مما نملك سواء لمعيشتنا أو لاعانة الفقراء، لا سيما اذا كان المجردون من المسيحيين، ذلك أننا برضوخنا هذا نصير فرصة لوقوع الذين يؤذوننا في الخطيئة. لكن هذا يعني تفضيل أملاكنا على انفسنا بحجة باطلة (انظر اع ٢٠: ٢٤). فتركي الصلاة وحفظ القلب لمقاضاة الذين ينازعونني والتردد كل يوم على المحاكم يعني جليّاً وضع الاملاك التي أطالِب بها فوق خلاصي، لئلا اقول فوق الوصيّة الخلاصية نفسها. فكيف لي أن أتبع الوصيّة الانجيلية التي تأمرني بأن «من اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضاً» (متى ٥: ٤٠) ان لم احتمل «سلب اموالي بفرح» حسب قول الرسول (انظر عب ١٠: ٣٤) ما دمتُ لم أحرّر السالب من خطيئته حتى بعد مقاضاته واسترجاعي كل مبتغاي؟ فمحاكم الفساد لا تستطيع ان تحدّ حكم الله غير القابل للفساد. لان الاحكام القانونية التي يخضع لها المدّعى عليه ليست ابداً سوى التي يتّفق له ان يدافع عن قضيته بموجبها. حسنٌ اذاً ان نصبر على ضيم الذين يريدون الاضرار بنا ونصلّي من اجلهم لكي يبرأوا من جرم السرقة بالتوبة لا بإرجاع ما سلبونا إيّاه. هذا ما تَنشده عدالة الرب: أن نستعيد لا الاملاك المختلسة بل الانسان المختِلس معتَقاً من خطيئته بالتوبة.

٦٥ – من الموافق جداً والنافع تماماً ان نعمد، حال تعرفنا على طريق التقوى، الى بيع املاكنا كلّها وتوزيع ثمنها حسب وصيّة الرب (متى ١٩: ٢١) عوض ان نهمل هذا التنبيه الخلاصي بحجة اننا نحفظ الوصايا في كل شيء. فان هذا يجزينا اولاً زهداً جميلاً وفقراً نصير به في مأمن من فخاخ العدو، فلا نبالي بأيّةِ ظلامة او منازعة تصادفاننا إذ لا يعود لنا ما يُذكي فينا النار التي تحرق الطمّاعين. ولكن ما سيدفئنا حينذاك اكثر من سائر الفضائل هو التواضع، فانه سوف يحتضننا كوننا عراة كما تحتضن الأمُّ طفلها لتدفئه اذا

ما نزع عنه ثيابه ورماها بعيداً ببساطة الاطفال، وهو في براءته هذه سعيد بعُريه اكثر مما لو كان في لباس بهي الالوان. فانه مكتوب: «الرب يحفظ الاطفال، انا اتضعتُ فخلّصني» (مز ١١٤: ٦).

٦٦ – ما من شك في ان الرب سوف يحاسبنا على صدقاتنا بمقتضى ما لنا لا بمقتضى ما ليس لنا (انظر ٢ كور ٨: ١٢). فاذا بدّدت حسناً وبمخافة الله، في زمن قصير، ما كنتُ استطيع اعطاءه خلال سنين طويلة فبماذا أُتّهم بعد انا الذي لا اقتني شيئاً؟ قد يقول احدهم: «ومن سيساعد الفقراء الذين اعتادوا ان يرتزقوا كل يوم من حقارتي؟» فليتعلم هذا الا يعيّر الله لبخله هو. فان الله لن يقصّر في تدبير خليقته كما يفعل منذ البدء وهو المدبّر الحكيم. لأنه قبل ان قام هذا او ذاك ليتصدّقوا على الفقراء لم يكن الفقراء ينقصون لا الطعام ولا اللباس. فحسنٌ اذاً، في سبيل المعرفة، ان نرفض بروح الخدمة الحسنة فخر الغنى غير العاقل لكي نبغض رغائبنا – هذا هو بغض النفس (لو ١٤: ٢٦) – ونتخلى عن سرور توزيع أملاكنا ونذلّل انفسنا الى الغاية من جرّاء شعورنا بأننا لا نقوم بأي فعل خيرٍ. فاننا ما دمنا نقتني ثروة وافرة نفرح فرحاً كبيراً بتبديدها ونسعد لفكرة طاعتنا الوصيّة الالهية، اللهم اذا كنّا من محبّي الخير. ولكن بعد ان نكون قد أنفقنا كل ما لنا يعترينا حزن مُبْهم وخزي لاننا لا نقوم بأي عمل من أعمال البرّ. فتعود النفس حينذاك الى ذاتها في انسحاق كبير وما لا يمكنها ان تحظى به بالاحسان يوماً بعد يوم تسعى للحصول عليه بالصلاة اللَّجوج والصبر والاتضاع. «الفقير والبائس لاسمك يسبّحان» (مز ٧٣: ٢١) فالله لا يُعِدّ موهبة المعرفة الالهية لأحد ما لم يستعدّ هو لها بتجرّده من كل املاكه لمجد انجيل الله، لكي يبشّر بغنى ملكوته في فقر محبوب كريم لديه. لأن الذي قال «انت يا الله رزقت الفقير بصلاحك» واضاف «الرب الاله يعطي الكلمة للذين يبشرون بها بقوة كبيرة» (مز ٦٧: ١٠–١١) هذا ما اراد جليّاً أن يقول.

في اللاهوت والمشاهدة

٦٧ – كل عطايا الله حسنة جداً وتؤتي كل الصالحات ولكن ما من عطية اخرى تُلهب قلبنا وتحركه الى محبّة صلاح الله مثل ما تفعل عطية «المعرفة الالهية». انها فرعٌ ربيعي للنعمة الالهية فتمدّ النفس بمواهب اخرى اوّليّة تتقدّم سائر المواهب على الاطلاق. فهي أوّلاً تهيّئنا لنرذل، بسرور، شغف هذه الحياة بأجمعه لانه لنا بها[1] عوض المشتهيات الارضيّة غنى كلام الله وسعتُهُ التي لا توصف. ثم تنير ذهننا بنارٍ تغيّره بل تضمه الى الارواح الخادمة للرب. فنحن اذاً يا اعزائي، يا من هُيّئنا لهذا كما يليق، نتوق الى تلك الفضيلة التأمّليّة الجميلة تُجزل إغناءَنا بكل زهدٍ وانعدامِ هَمّ، وتغذّي الذهن بكلام الله في بهاءِ نورٍ لا ينطق به. وهي بايجازٍ قد قرّبت نفسَ الانسان العاقلة من «العقل» الذي هو الله بوساطةِ الانبياء القديسين، في سبيل اتحادٍ به لا ينفصم، لكيما تقوم هذه الملقّنة الالهية، حتى بين البشر ويا للعجب ! بتأمين تآلفِ وتناغمِ الاصوات المؤلّهة التي تسبّح جلياً عظائم الله.

٦٨ – إن ذهننا في معظم الاحيان يضيق ذرعاً بالصلاة لاجل ضيق هذه الفضيلة وانحصارها الأقصى، غير انه يُقبل الى «المعرفة الالهية» بفرح لما تتّصف به التأملاتُ في الله من حريّة ورحابة. فلكي لا نُطلق العنان لرغبته في كثرة الكلام بل لكي لا نتركه يندفع فرحاً اكثر من اللازم، فلنكبّ اكثر ما يمكن على الصلاة وترتيل المزامير ومطالعة الأسفار المقدسة، دون إهمال مطالعات رجال المعرفة البادي ايمانهم في اقوالهم. فاننا بهذا لا نأتي به الى

(١) بالمعرفة الالهية

خلط كلامه بكلام النعمة ولا نتيح له الانجراف الى الغرور والتشتّت من فرط السرور وكثرة الاحاديث. ثم نصونه من كل تخيّل اثناء المشاهدة الروحية، وبذا نجعل كل افكاره او معظمها تؤول الى دموع. فهو اذ يكون جالساً ساكناً في هدوء عزلته، مُفعَماً بحلاوة الصلاة، لا يتجنّب المحاذير السابق ذكرها فقط بل يتجدّد اكثر فأكثر لينكبّ بدراية ودون تعب على المشاهدات الالهية، فضلاً عن تقدّمه في فضيلة التمييز باتضاع عظيم. ولكن لنعلم ان هناك صلاةً تفوق كل رحابةٍ، إلاّ انه لا يقتنيها سوى الذين أُفعموا من النعمة الالهية في شعور كليّ بالملء.

في تقلّبات التأمّل

٦٩ – تشرع النعمة عادة بانارة النفس بنورها الذاتي[1] في إحساس عميق، ثم مع تقدّم الحروب الروحية تُتم اسرارها في النفس التأملية، بصورة غير مدركة، لتدفعنا تارة الى تتبّع المشاهدات الالهية بفرح كمدعوّين من الجهل الى المعرفة، ولتحفظ معرفتنا تارة اخرى في وسط الحروب بعيدة عن الغرور. فالأولى بنا ان نحزن باعتدال عند شعورنا بأننا مرذولون لكيما نزداد اتضاعاً وخضوعاً لمجد الله، وان نفرح عندما يجنّحنا حسنُ الرجاء. فكما ان فرط الحزن يُغرق النفس في اليأس وعدم الايمان كذلك فرط الفرح يسوقها الى العُجب. اني اقول ذلك من اجل الذين ما زالوا اطفالاً، اذ انه في منتصف الطريق بين الرذل والاستنارة تقوم المحنة، وفي منتصف الطريق بين الحزن والفرح يقوم الرجاء. فانه مكتوب «انتظرتُ الربَّ بصبرٍ فأصغى اليّ» (مز ١:٣٩) وايضاً «ان تعزياتِكَ فرّحتْ عن نفسي حسب كثرة اكداري في قلبي» (مز ١٩:٩٣).

(١) بنور النفس عينه

٧٠ – اذا ما فُتحَتْ ابواب الحمّام على الدوام تُطرد حرارةُ الداخل الى الخارج سريعاً، كذلك ايضاً اذا ما استسلمت النفس الى رغبتها في كثرة الكلام، حتى وان كان كل ما تقوله حسناً، فأنها تبدّد ذكرها لله من باب الكلام. ولذا تُضْحي محرومةً من الافكار الموافقة وتروح تعرض على اوّل القادمين جملةً فيضَ تفكيرها، اذ باتت لا تقتني الروح القدس ليصون افكارها من التصوّرات. لان الصلاح يهرب دوماً من الثرثرة كونه غريباً عن كل اضطراب وتخيّل. فالصمت الملائم شيء جميل اذاً، وهو ليس بأقل من أبٍ لافكارٍ كثيرة الحكمة.

٧١ – تُعلّمنا أقوالُ المعرفة[1] أنّ اهواء كثيرة تُداهم في البداية النفسَ المنصرفة للمشاهدة الالهية، ومنها خاصّةً الغضب والبغض. وليس هذا من فعل الشياطين بقدر ما هو بسبب تقدّمها عينه. فانها ما دامت تنصاع لفطنة هذا الدهر لا تنفعل ولا تضطرب لرؤيتها الحق مداساً، اذ تكون منشغلة بمشتهياتها فلا تنظر الى حقوق الله؛ أما اذا بدأت ترتفع فوق اهوائها فانها لاجل احتقارها للحاضر ومحبتها لله لا تتحمّل رؤية الحق مُهاناً حتّى ولو في الحلم، فتغضب من ثم على المذنبين وتعمل ناشطةً الى ان ترى معيّري العدل يكفّرون دينياً عن ذنبهم. لهذا فهي تبغض الأشرار وتحبّ الابرار، لأن عين النفس تخلو من كل انحراف اذا كان سِترُها – أعني الجسد – قد صار بالامساك والعفّة نسيجاً كثير الرقّة. إلاّ انه من الافضل جداً البكاء على عدم إحساس الاشرار بدلَ بُغضهم. فالنفس المُحبّة لله، وإن أقْرَرنا بأن هؤلاء يستحقون البغض، لا يسمح لها العقلُ بالاستسلام له، لانه ما دام البغض قائماً في النفس فالمعرفة لا تفعل فيها.

٧٢ – اللاهوتي الذي تفعمه وتُلهبه اقوالُ الله في الاسفار

(١) او اقوال العلم كما وردت في الكتاب المقدس (امثال ٢٧:١٩ و اكور ٨:٢١)

المقدسة ينتهي بعد اجتيازه بعض المحن الى رحاب اللاهوى الفسيحة. لان «كلام الرب كلام نقيّ كالفضة الممحّصة المصفّاة بالنار من كل مزيج ترابي ...» (مز ١١:٦). «فالعارف» الذي تقوّى بالخبرة العملية يرتفع فوق الاهواء، ولكن «اللاهوتي» ايضاً يذوق خبرة المعرفة، إن اتّضع، وذلك كالعارف الذي اذا ما حفظ تمييزه عارياً عن الخطأ يبلغ تدريجيّاً الى قوة المشاهدة. لا تعطى الموهبتان بكاملهما ابداً الى شخص واحد، حتى اذا ما أُعجب الواحد بما يتفوّق به عليه الآخر يكثر تواضُعُهما مع غيرتهما للبر. لذا يقول الرسول: «فانه لواحدٍ يعطى بالروح كلام حكمة ولآخر كلام علم (أي معرفة) بحسب الروح الواحد» (١ كور ١٢: ٨).

٧٣ – حين تكون النفس رائعةً في وفرةِ ثمارها الطبيعية ترفع ترتيلها عالياً وتبتغي المزيد من الصلاة الصوتيّة. أما اذا كان الروح القدس يفعل فيها فانها ترتل وتصلّي في سر القلب بكثير من التسليم والعذوبة. الحالة الاولى يرافقها فرح سريع التخيّل، اما الثانية فترافقها دموع داخلية روحية مع نشوة توّاقة الى الصمت. لأن ذكر الله الذي يحفظ حرارتها عن طريق سكوت الصوت يُعدّ القلب لان يطفح بخواطرِ توجّع ووداعة. واذ ذاك يمكننا فعلاً ان نرى بذار الصلاة تُزرع بالدموع في ارض القلب، على رجاء فرح الحصاد. أما اذا ما داهمنا القنوطُ فيجب ان نرفع الصوت في ترتيل المزامير اكثر قليلاً ضاربين على اوتار النفس ومستخرجين نغماتها ببهجة الرجاء الى ان تتبدّد هذه السحابة الثقيلة بنفثات الترانيم.

٧٤ – متى صارت النفس الى معرفة ذاتها أنتجتْ تلقائياً حرارة مرْضية لله، لانها اذ لم تعد مضطربة لهموم الحياة تلد اشتياقاً الى السلام يحث كما يليق عن إله السلام. ولكنّها تتشاغل عنه سريعاً إمّا بسبب خيانة الحواس لها، او ايضاً بسبب الطبيعة التي من شأنها ان تستنفد سريعاً، نتيجة العجز، ما لها من الصلاح. لذا فحكماء اليونان لم يكن يملكون كما يجب

ما كانوا يظنّون بلوغه بالامساك، لان ذهنهم لم يكن تحت تأثير الحكمة الأزلية الحقّ. أما الحرارة الحاصلة في القلب من الروح القدس فهي على العكس من ذلك كليّة السلام تحثّ كل أقسام النفس على طلب الله، ولا تتبدّد خارج القلب بل تنشّط بواسطته الانسان كله الى محبّةٍ وسرورٍ لا حدّ لهما. فيجب اذاً أن نتبيّن حقيقة الحرارة الاولى ونبلغ الى الثانية. لانه اذا كانت المحبة الطبيعية تدلّ على شيء من عافية الطبيعة في حال الامساك، فانها لا تقدر ابداً على جعل الذهن صالحاً وتقيمه في اللاهوى كما تفعل المحبة الروحية.

في النعمة والأرواح المختلفة

٧٥ – حين تُنسّم ريح الشمال على البسيطة يبقى الهواء المحيط بنا نقيّاً لان هذه الريح عليلة بطبيعتها وتجعل الجو صافياً، اما اذا هبّت ريح الجنوب فيتكثّف الهواء بسبب الضباب الذي تحدثه تلك الريح عادة، لأنها لأجل تجانسها مع السحب تستجلبها على كل الارض من المناطق التي تسود فيها. هذه هي حال النفس ايضاً فعندما تخضع لإلهام الروح القدس الحق تكون بجملتها خارج الضباب الشيطاني، ولكن اذا تنشّقتْ نفحة روح الضلال تغشاها سحبُ الخطيئة. فيجب بالتالي توجيه مشيئتنا دائماً وبكل قوانا نحو نفحة الروح القدس المحيية والمنقيّة، اي نحو الذي شاهده النبّي حزقيال في نور المعرفة آتياً من الشمال (حز ٤:١). على هذه الصورة يكون للنفس التأملية الحظ الاكبر في البقاء صافية على الدوام، ونستطيع بالتالي ان نُقبل على المشاهدات الالهية دون ضلال، معاينين بالنور بهاء النور (انظر مز ٣٥: ٩). لان هذا هو نور المعرفة الحقيقية.

٧٦ – لقد تصوّر البعض أن النعمة والخطيئة، أي روح الحق وروح الضلال، يحتجبان معاً في عمق الذهن عند المعمَّدين. ويقولون إنه من هناك يدعو احدهما الذهن الى الصالحات فيبادر الآخر ويدعوه للتو الى عكس ذلك. أما أنا فقد أُفهمتني الأسفار المقدسة وحاسّتي الذهنيّة ان

قبل المعمودية تحثّ النفس على الصلاح من خارج، في حين يتستّر الشيطان في أعماقها محاولاً سدّ كل مخارج الذهن نحو الجهة اليمنى. أما منذ لحظة تجديدنا بالمعمودية فينتقل الشيطان الى الخارج والنعمة الى الداخل. فنكتشف حينذاك انه اذا كان الضلال هو السائد على النفس قبلاً فان الحق كذلك هو الذي يملك عليها بعد المعمودية. إلاّ ان ابليس يستمر في مجاهدة النفس كالسابق، بل اكثر من السابق في معظم الاحيان، لا لانه يساكن النعمة، حاشا لي ان افكّر هكذا! بل لانه من خلال رطوبة الجسد يبدو وكأنه يحوّل حلاوة الملذات الشهوانية الى بخار في الذهن. وهذا يحدث بسماحٍ من الله حتى اذا ما جاز الانسان في عاصفة المحنة ونارها يصل اذا شاء الى التنعّم بالصلاح، فقد قيل: «جزنا بالنار والماء وأخرجتنا الى منتجع راحة» (مز ٦٥: ١٢).

٧٧ – منذ لحظة المعمودية تتستّر النعمة في أعماق الذهن، كما أسلفت، مُخفيةً حضورها حتى على الحسّ الداخلي. ولكن متى بدأنا نتوق الى الله بعزم تام تنقل النعمة حينذاك بعضاً من خيّريتها الى النفس عن طريق حسّ الذهن في تفاعل لا ينطق به. فمن توخّى اذ ذاك ان يضمن كلّياً امتلاك هذا المغنم يأتي الى ابتغاء ترك كل خيرات هذه الارض بفرح كبير ليملك حقاً الحقل الذي وجد فيه كنز الحياة (متّى ١٣: ٤٤). لأننا حين نزهد في كل الغنى الزمني نجد الموضع الذي طُمرت فيه نعمة الله. فالعطيّة الالهية تُظهر ايضاً عذوبتها للذهن بمقدار نموّ النفس. لكن الرب حينذاك يسمح بان تُزعج الشياطينُ النفسَ اكثر من ذي قبل ليعلّمها جيّداً تمييز الخير من الشر ويزيدها اتضاعاً بسبب العار العظيم الذي تشعر به من جرّاء دنس الافكار الشيطانية بعد ان تتنقّى منها.

٧٨ – نحن على صورة الله من حيث حركة النفس الواعية وما الجسد الاّ نظير بيتٍ لها. ولما كانت سمات النفس قد تشوهت بخطيئة آدم، بل جسدنا نفسه فسد شيئاً فشيئاً، تجسّد كلمةُ الله ووهبنا ماء الخلاص

بمعمودية تجديد الولادة في الله الذي هو الكلمة. فنحن اذاً نولد جديداً بواسطة الماء بفعل الروح القدس المحيي، ومن ثم نتطهّر للحال نفساً وجسداً (أو يتطهر على الاقل من يتغون الله بكامل ارادتهم)، هذا لان الروح القدس يقيم فينا ويطرد الخطيئة. فانه لمن المتعذر كما اعتقد بعضهم ان يقيم شخصان في نفس ذات سمات واحدة وبسيطة، ذلك لانه عندما تطابق النعمة الالهية سمات صورة الله فينا بالعمودية المقدسة كعربون لتحقيق مثال الله مستقبلاً في محبّة لا حدّ لها، فأين يمكن للشرير ان يجد مكاناً يكمن فيه، سيما وانه «أية شركة للنور مع الظلمة»؟ (٢ كور٦: ١٤). فنحن الساعين في الجهاد الروحي المقدس نؤمن اذاً ان الحيّة الكثيرة الاشكال تُطرد من خزائن كنوز النفس بحميم عدم الفساد لكن لا نتعجبنّ اذا ما بقيت تراودنا بعد المعمودية افكار شريرة وسط الافكار الصالحة، ذلك ان حميم القداسة وإن كان ينتزع دنس الخطيئة فهو لا يغيّر حالاً ازدواجية مشيئتنا ولا يمنع الشياطين من محاربتنا ولا من مخاطبتنا بأقوال مضلّلة، حتى إن ما لم نعرف ان نحفظه حين كنا نفسانيين نحافظ عليه بتسلّحنا بأسلحة البر بقوة الله.

٧٩ – يُطرد ابليس من النفس بالمعمودية المقدسة كما سبق القول؛ ولكن يُسمح له بمحاربتها بواسطة الجسد للاسباب المتقدم ذكرها، لان نعمة الله تقوم في عمق النفس – أي في الذهن – فإنه مكتوب ان «مجد ابنة الملك كله في الداخل» (مز ٤٤: ١٣) محجوباً عن الشياطين. لذا عندما نذكر الله بحرارة نشعر وكأن الشوق الى حبّه ينبع من عمق اعماق النفس. وبالتالي فان الارواح الشريرة تداهم حواس الجسد وتتلطّى فيها، مستعينة بتواطؤ الجسد (انظر متى ٢٦: ٤١) لتقاتل الذين ما زالوا اطفالاً بالنفس. وهكذا بحسب قول الرسول (رو ٧: ٢٢) يُسرّ الذهن دوماً بناموس الروح في حين ترتضي حواس الجسد الانجذاب الى منحدر اللذة. لذلك فان النعمة عند المتقدمين في المعرفة تفرّح الجسد عن طريق الحسّ الذهني فرحاً لا يوصف. أما الشياطين فيقيّدون النفس بعنفٍ بحواس الجسد مجتذبين اياها نحو ما لا تريد، سيما

حين يضبطنا اولئك القتلة فيما نحن نعدو بفتور في طريق التقوى.

٨٠ – الذين يزعمون أن النعمة والخطيئة تتعايشان في قلوب المؤمنين متذرّعين بقول الانجيلي «النور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه» (يو ١: ٥) يدّعون تثبيت معتقدهم بقولهم ان البهاء الالهي لا يتدنّس في أية حال بمجاورة الشرير له كما يقول الرسول (انظر ٢ كور ٦: ١٤)، وذلك أياً كان قرب المجاورة بين النور الالهي والظلمات الشيطانية في النفس. ولكن قول الانجيل نفسه يثبت عليهم أنهم ينحرفون في رأيهم عن الكتاب المقدس. لانه اذ قد شاء كلمة الله ان يظهر النور الحقيقي لخليقته في الجسد مُشعِلاً فينا نور معرفته المقدسة بصلاحه الذي لا حدَّ له، وبما ان روح العالم لم يُدرك قصد الله، اي لم يعرفه لان «اهتمام الجسد هو عداوة لله» (رو ٨: ٧)، لذلك استعمل الانجيلي عبارة «لم تدركه». ألم يستطرد بعد بضع كلمات قائلاً: «كان النور الحقيقي الذي ينير ويقدّس كل انسان آتٍ الى العالم» (قاصداً أنه يرشد ويحيي)، «كان في العالم وبه العالم كُوِّن والعالم لم يعرفه، الى خاصته جاء وخاصته لم تعرفه وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً ان يصيروا اولاد الله اي المؤمنون باسمه» (يو ١: ٩ – ١٢)؟ والرسول بولس الكثير الحكمة يقول ايضاً مفسراً تلك العبارة: «لست اني قد نلت او صرت كاملاً ولكنني أسعى لعلّي أُدرك الذي لاجله ادركني ايضاً المسيح يسوع» (في ٣: ١٢). اذاً لم يقصد الانجيلي ابليس بقوله انه لم يدرك النور الحقيقي، اذ ان ابليس غريب عن النور منذ البدء ما دام النور لا يضيء فيه؛ أمّا الذين يسمعون بعظائم ابن الله وعجائبه ولا يريدون الاقبال الى نور المعرفة من جرّاء قتام قلوبهم فهؤلاء هم الذين يعيّرهم الانجيلي عن حق بذلك القول.

٨١ – تعلّمنا أقوال المعرفة[١] ان هناك نظير نوعين من الارواح

(١) أي اللاهوت

الشريرة، بعضها اكثر لطافة والبعض الاخر اكثر ماديّة. والاكثر لطافة هي التي تحارب النفس، اما الاخرى فمن عادتها سبي الجسد بجذبه الى الشهوات. لذا فالشياطين الذين يحاربون النفس، والذين يهاجمون الجسد، يتصرّفون دائماً تصرّفاً عكسياً وإن كان عزمهم على ايذاء البشر واحداً. فعندما لا تسكن النعمة في الانسان يتسلّلون كالحيّات الى اعماق القلب ولا يدعون النفس تتجه الى اشتياق الصلاح اطلاقاً. اما اذا حلّت النعمة مستترة في الذهن فحينئذ يجولون فقط في اجزاء القلب مثل سُحب قاتمة، متخذين شكل اهواء الخطيئة وشكل ملهيات مختلفة ليشتتوا ذاكرة الذهن ويقتلعوها من إلفتها مع النعمة. لذلك فعندما يعمد الشياطين محاربو النفس الى اذكاء الاهواء النفسانية فينا، بخاصة العُجب الذي هو أم الرذائل، نزيل نحن انتفاخ العُجب اكثر ما نزيله بتأملنا عار انحلال الجسد. وينبغي ان نلجأ الى ذلك ايضاً حين يحاول الشياطين محاربو الجسد اثارة حمّى الشهوات المعيبة في قلبنا، لان ذكر انحلال الجسد يستطيع لوحده ضبط نوعي الارواح الشريرة عن طريق ذكر الله. واذا ما عمد الشياطين محاربو النفس بالمقابل الى ان يوحوا الينا، بداعي فكرة انحلال الجسد، احتقاراً مفرطاً للطبيعة البشرية باعتبارها غير ذات قيمة بسبب الجسد (وهذا ما يؤثرون فعله حين نريد تعذيبهم بمثل هذه الفكرة) (انظر لو ٨: ٢٨)، فلنذكر حينذاك شرف ملكوت السماوات ومجده دون ان تغيب عن بالنا مرارة الدينونة القاتمة، حتى ينهضنا الذكر الاول من يأسنا ويردع الثاني خفة قلبنا.

٨٢ – يعلّمنا الرب في الاناجيل ان ابليس حين يجد بيته عند عودته اليه مكنوساً فارغاً (متى ١٢: ٤٤ – ٤٥) اي حين يجد القلب عادم الثمر، يأخذ معه سبعة أرواح اخرى ويدخل ويربض فيه جاعلاً حالته الاخيرة شرّاً من الاولى. فنستنتج من هذا أنه ما دام الروح القدس ساكناً فينا لا يمكن لابليس الدخول والاقامة في عمق النفس. ولكن بولس الالهي ايضاً يعلّمنا بوضوح معنى ذلك القول: انه ينظر الى المسألة اولاً من ناحية أصول القتال فيقول: «فاني أُسرّ بناموس الله بحسب الانسان الباطني ولكني

اری ناموساً آخر في اعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني الى ناموس الخطيئة الكائن في اعضائي». ومن ناحية الكمال يقول: «اذاً لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح لان ناموس روح الحياة أعتقني من ناموس الخطيئة والموت» (رو ٧: ٢٢ – ٢٣ و ١: ١ – ٢). ولكي يعلّمنا من جديد ان ابليس ينطلق من الجسد ليحارب النفس التي تنعم بالروح القدس يقول في موضع آخر: «فاثبتوا ممنطقين احقاءكم بالحق ولابسين درع البر وحاذين ارجلكم باستعداد انجيل السلام حاملين فوق الكل ترس الايمان الذي به تقدرون ان تطفئوا جميع سهام الشرير الملتهبة، وخذوا خوذة الخلاص وسيف الروح الذي هو كلمة الله» (افسس ٦: ١٤ – ١٧). ان السبي شيء والجهاد شيء آخر، فالاول يعني إبعاداً بالعنف والثاني صراعاً متكافيء القوة. لذا يقول الرسول ان الشيطان يهاجم النفوس الحاملة المسيح بنبال ملتهبة، لان من لا يسود خصمه يرميه بالاسهم باستمرار ليتسنّى له بنبال مجنّحة طرد من يحاربه عن بعد. وكذلك ايضاً ابليس الذي لا يمكنه التخفي كالسابق في ذهن المجاهدين بسبب حضور النعمة فيه يحوم فوق رطوبة اجسادهم ويتستر فيها لكي بتواطئه يصطاد النفس (انظر متى ٢٦: ٤١). لذا ينبغي اضناء الجسد على وجه موافق خوفاً من ان ينزلق الذهن بواسطة رطوبة الجسد في منحدر الملذات. فيجب تصديق كلام الرسول الصريح القائل بأن ذهن المجاهدين يتأثر بالنور الالهي ولذا يخضع لناموس الله ويسرّ به (رو ٧: ٢٢)، اما الجسد فيسرّ في تواطئه باقتبال الارواح الشريرة وقد ينقاد الى الاستعباد لشرها. من هنا يتضح جلياً ان الذهن ليس بيتاً مشتركاً لله والشيطان معاً، لانه ان كان ذهني لا ينهض بملء حريته لمحاربة الشياطين خاضعاً بسرور لصلاح النعمة، بينما الجسد يقتبل برضاه رائحة الملذات المنحرفة عن الصواب، فكيف يكون صحيحاً «اني بذهني اخدم ناموس الله ولكن بالجسد ناموس الخطيئة»؟ (رو ٧: ٢٥). هذا لانه – واردد – قد سُمح لارواح الكذب الخبيثة بالاقامة في جسد المجاهدين: «فاني عالم انه ليس ساكن فيّ اي في جسدي شيء صالح» (رو ٧: ١٨)، وبالتالي في الذين يقاومون

الخطيئة نحو منتصف الصراع، لان الرسول لا يقول ذلك عن نفسه. فالشياطين يحاربون الذهن ولكنهم يحاولون باغراءاتهم الشهوانية ارخاء الجسد وجرّه الى منحدر الملذات. انه لمتاح لهم في الواقع، وفقاً لرأي سديد، ان يسكنوا داخل الجسد حتى في الذين يجاهدون الخطيئة ببأس وشدة، لان حرية الانسان تبقى دائماً تحت الاختبار. اما اذا استطاع احد ان يموت بأتعابه منذ هذه الحياة فانه يصبح كله حينذاك بيتاً للروح القدس، اذ ان مثل هذا الانسان هو منذ الان وقبل ان يموت قائم من الاموات، كما حصل للمغبوط بولس نفسه ولجميع الذين جاهدوا او يجاهدون ضد الخطيئة على نحو كامل.

٨٣ – لا شك في ان القلب يأتي ايضاً من تلقاء ذاته بأفكار صالحة او رديئة. لا لأنه يبدع بطبيعته الافكار الرديئة إنما لأنه غدا بعد الخدعة الاولى يحتفظ بذكرى الشر كعادة. غير أنه في معظم الحالات يصوّر الافكار الرديئة بفعل شراسة الشياطين، ولكننا نشعر بالافكار كلها وكأنها صادرة من القلب. لذا فقد خُيّل للبعض أن الخطيئة تساكن النعمة في القلب ويزعمون ان الرب لهذا قال:« واما ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر وذلك ينّجس الانسان لأن من القلب تخرج افكار شريرة مثل زنى الخ...» (متى ١٥: ١٨ – ١٩). هؤلاء لا يعرفون أن الذهن، الذي له قدرة التقاط جدّ دقيقة، يمتلك لذاته بواسطة الجسد فعل الافكار التي توحي بها اليه الارواح الخبيثة. ذلك ان تواطؤ الجسد، على منوال نجهله، يشدّد ايضاً ميل النفس هذا لامتزاجه بها. ان الجسد دائم الولع بأن يُدغدَغ بالتمليق وبالتالي تبدو الافكار التي يزرعها الشياطين في النفس وكأنها صادرة عن القلب. وفي اية حال نحن نجعلها فعلاً لنا حين نجاريها، وهذا ما ذمّه السيّد، كما يتّضح من القول الالهي نفسه، عند استعماله للعبارة المذكورة اعلاه. لان من يُسَرّ بالافكار التي يوحيها اليه ابليس ويطبع ذكرها في قلبه، اذا جاز القول، هذا نفسه بات يبدعها بوضوح وكأنها ثمرة تفكيره هو.

٨٤ – يقول الرب في الاناجيل ان القويّ لا يمكن ان يُطرد من بيته ما لم يقيّده اولاً مَنْ هو أقوى منه ويجرّده ويخرجه (متى ١٢: ٢٩). فمن اين يتسنّى اذاً لمن طُرد بهذا الشكل المشين ان يعود ويعيش من جديد مع رب البيت الحقيقي الذي يسكن في بيته حسبما يشاء؟ الملك الذي يظفر بمنافسٍ قد تمرَّد عليه لن يقبل فكرة مقاسمته قصره بل سوف يذبحه على الفور، او على الاقل سيدفعه مقيّداً الى عساكره ليعذّبوه طويلاً ويميتوه شرّ ميتة.

٨٥ – إن ظن أحد ان الروح القدس والشيطان يسكنان معاً في الذهن لأن أفكاراً صالحة وأفكاراً سيئة تخطُر لنا في آن فليعلم ان السبب كامن في اننا لم نذقْ ولم ننظر بعد ما أطيب الرب (مز٣٣: ٨). فالنعمة باديء الامر تخفي حضورها في المعمَّدين، كما اسلفنا، منتظرة ارتسام عزم النفس. فعندما يكون الانسان قد اتجه بكليته نحو الرب تُظهر النعمة حينذاك حضورها في القلب في إحساس لا يُنطَق به. ثم تعود من جديد الى انتظار حركة النفس تاركةً سهام الشيطان تصل الى حسّها الداخلي الصميم لكيما تبحث عن الله بعزم اكثر حرارة وبروح متّضع. ان بدأ الانسان عند ذاك يتقدم من خلال حفظه للوصايا، ويدعو الرب يسوع بلا انقطاع، تمتّد نار النعمة الالهية حتى الى حواسّ القلب الخارجية محرقةً كلياً زؤان البشرة، بحيث لا تعود هجمات الشيطان لتصل الاّ بعيداً عن هذه الحواس وتكاد تكف عن وخز جزء النفس الحسّي. واخيراً حين يكون المجاهد قد تمنطق بسائر الفضائل، وبالفقر الكامل خاصة، تنير النعمة اذ ذاك طبيعته كلها باحساس اكثر عمقا وتشرع فتلهبها لكي تحب الله حباً عظيماً. عندها تنطفيء السهام الشيطانية خارج حس الجسد لان نسيم الروح القدس الذي يرتقي بالقلب نحو رياح سلام يطفيء سهام الشرير المحرقة فيما هي آتية في الهواء (انظر أفسس ٦:١٦). الا ان الله احياناً يسلّم الى شر الشياطين حتى من بلغ الى هذه الحال، حابساً ذهنه عن النور كيلا تكون حريتنا مقيدة كلياً برباط النعمة، لا لأن الجهاد فقط هو الذي يظفر بالخطيئة بل لأنه يترتب على الانسان ان يواصل التقدم ايضا في الخبرة

الروحية. فان ما نحسبه كمال الطالب يبقى ناقصا ازاء غنى الله الذي يواصل تعليمنا بمحبة طموح، ذلك حتى ولو استطاع المرء بكثرة تقدّمه في الاتعاب ان يتسلّق السلّم كلها التي صعدها يعقوب (انظر تك ٢٨ – ١٢).

٨٦ – الرب نفسه يقول بان الشيطان سقط من السماء كالبرق (لو ١٠:١٨)، ذلك كي لا يتمكن هذا الكلي القباحة من القاء نظرة واحدة على مسكن الملائكة القديسين. فكيف يتسنّى لمن يُحسب غير مستحق لشركة العبيد الصالحين ان يشارك الله مسكن الذهن البشري؟ قد يقولون: ولكن هذا يتم عند انسحاب الله. غير انهم لا يستفيدون من هذا شيئا : فان تخلّي الله التأديبي لا يحرم النفس قطعاً من النور الالهي، انما تخفي النعمة حضورها للذهن في معظم الاحيان، كما سبق القول، لتجعل النفس تتقدم من جرّاء شراسة الشياطين، اذا جاز القول، كونها تلتمس معونة الله بخوف كلّي وتواضع عميق، متعلمة شيئا فشيئاً ان تتبيّن خبث عدوّها. فهي تشابه أمّاً ترى طفلها يأبى ان يرضع كما هو مرتب له فتبعده بعض الوقت عن ذراعيها حتى اذا ما جزع من اناس مستكرَهين يحيطون به او من حيوانات مختلفة يرجع سريعاً ليرتمي في حضن امه بخوف عظيم ودموع. اما الغمّ الذي يحلّ بنا حين يتحول الله عنا فهو يجعل النفس التي تأبى اقتناء الله اسيرة للشياطين. اما نحن فلسنا ابناء الارتداد للهلاك (عب ١٠:٣٩)، لا سمح الله، بل نعتقد يقيناً اننا بنون شرعيون لنعمة الله الذي يرضعنا بلبنه وسط احزان يسيرة وتعزيات كثيرة، حتى نسرع بصلاحه فنبلغ بنعمته الى قامة انسان كامل، الى كمال السن (انظر افسس ٤:١٣).

٨٧ – التخلّي التربوي يسبب للنفس كثيراً من الحزن والذلّ، كما يسبب ايضاً يأساً مناسباً، حتى ان قسم النفس الذي يطلب المجد ويتعظم بسهولة يعود كما يليق الى الاتضاع. الا انه يؤتي القلب في الحال مخافة الله ودموع الاعتراف ورغبة كبيرة في الصمت الجميل. اما التخلّي الناجم عن

تحوّل الله عنّا فيملىء النفس يأساً وارتياباً وغضباً وكبرياء في آن. فيجب اذاً ان نختبر كلاً من التخلّي التربوي والتخلي الارتدادي بغية الذهاب الى الله بالاستعداد المناسب لكل منهما. في الحالة الاولى يجب ان نقدّم له مع طلب المغفرة شكرنا لأنه ارتضى ان يؤدبّ شطط مشيئتنا بقطع تعزياته عنا لكي يعلّمنا كأب صالح ما الفرق بين الفضيلة والرذيلة؛ وفي الحالة الثانية اعترافاً بخطايانا لا ينقطع وعبرات لا تهدأ ومزيداً من الوحدة لنستطيع بهذا المزيد من الاتعاب استرضاء الله ليعود فينظر الى قلوبنا كما في السابق... ولكن يجب ان نعرف أنه اذا اتخذ الصراع شكل مواجهة حقيقية بين النفس والشيطان، أعني في حال التخلّي التربوي، فان النعمة تتوارى، كما سبق فقلت، الا انها تعين النفس اعانة خفيّة لتبدو الغلبة وكأنها، في نظر اعدائها، غلبة النفس وحدها.

٨٨ – حين يقف المرء شتاءً في الهواء الطلق عند مطلع النهار، ممتداً كلّه نحو الشرق، يتلقى جسمه من الامام بعضاً من الدفء، في حين يبقى ظهره دون دفء كلياً لأن الشمس ليست فوق رأسه. هكذا قلب المبتدئين فهو يكون متدفئاً جزئياً بالنعمة المقدسة. لذا يبدأ يثمر ذهنهم بعض الافكار الروحية؛ غير أن أقسام القلب المنظورة تستمر فتخطر لها خواطر الجسد، ذلك ان أعضاء القلب ليست بعد مستنيرة كلها، في شعور عميق، بنور النعمة المقدسة. وقد خيلّ للبعض، لعدم فهمهم هذا الأمر، ان في ذهن المجاهدين شبه مبدئين متناقضين. لذلك يتفق ان يخطر للنفس في لحظة واحدة أفكار صالحة وأفكار شريرة كما حدث للمرء في المثل الذي اوردنا اذ احس بالبرد والدفء تحت لمسة الشمس الواحدة. فمنذ ان انزلق ذهننا، وصار الى حالة المعرفة المزدوجة، بات محتماً ان تخطر له في آن افكار صالحة وأفكار رديئة سيما عند الذين وصلوا الى دقة التمييز، فبقدر ما يسارع الذهن الى تصور الخير يعمد حالا الى ذكر الشر؛ لأنه أضحى بعد معصية آدم منقسماً كما الى فكر مزدوج. فمتى شرعنا اذاً بحفظ وصايا الله بغيرة متّقدة غدت كل حواسنا مستنيرة، في شعور عميق، بالنعمة التي تحرق افكارنا، اذا جاز القول، وتُدخل

الى قلبنا لا أُدري اي سلام مفعم بمحبة خالصة لا تتغير، فتعدّنا فيما بعد للتفكير روحياً لا جسدانياً. هذا ما يحصل دائما للذين يقربون من الكمال، اولئك الذين يحوون في قلبهم ذكر الرب يسوع على الدوام.

٨٩ – ان النعمة المقدسة تهبنا بمعمودية اعادة الولادة خيرين اثنين يفوق احدهما الآخر بما لا يُقاس. فهي تمنحنا الخير الاول للحال اذ تجدّدنا في ماء المعمودية عينه فتتألق اذ ذاك كل ملامح النفس، اي صورة الله فينا، ماحية كل غضون الخطيئة (انظر أف ٥:٢٧). اما الخير الثاني فتنتظر مساهمتنا لتمنحنا اياه: انه مثال الله فينا. فاذا ما بدأ الذهن يتذوق في شعور عميق صلاح الروح القدس، فاعلم حينذاك ان النعمة شرعت ترسم المثال فوق الصورة اذا صحّ القول. فكما أن الرسامين يرسمون اولا الوجه بلون واحد ثم يضيفون شيئا فشيئا لوناً زاهياً فوق آخر محافظين على سحنة النموذج وهيئته حتى الشعر منها، هكذا نعمة الله تبدأ في المعمودية فتعيد تكوين الصورة الى ما كانت عليه عند خلق الانسان، ثم انها عندما ترانا نصبو بكل ارادتنا الى جمال المثال ونقف في مشغلها عراة متضعين تزيدنا حينذاك فضيلة زاهية فوق اخرى وترفع جمال النفس من بهاء الى بهاء فتكسبه بالتالي سمة المثال. هكذا يكشف لنا الحس الداخلي أننا انما نكيَّف تدريجياً نحو مثال الله. اما كمال المثال فلن نعرفه الا بالاستنارة. فان الذهن يتقبل كل الفضائل بواسطة الحسّ الداخلي متقدّماً حسب مقياس وايقاع لا ينطق بهما. اما المحبة الروحية فلا أحد يقدر ان يبلغها ما لم يكن مستنيراً بالروح القدس بيقين تام. فالذهن ان لم يتقبل المثال على نحو كامل بفضل النور الالهي فهو يستطيع ان يقتني سائر الفضائل او يكاد الا انه يبقى عادم المحبة الكاملة. فهو حين يصير مماثلا لفضيلة الله، بقدر ما يمكن للانسان ان يماثل الله، حينئذ يحوي مثال المحبة الالهية ايضا. فكما ان الألوان المتنوّعة المزهرة في رسوم الوجوه والمضافة الى الصورة الاولى تحفظ مشابهتها للنموذج حتى في الابتسامة، كذلك ايضاً استنارة المحبة اذا ما اضيفت الى الذين ترسمهم النعمة الالهية على مثال الله تكشف

ان الصورة قد ادركت كلياً جمال المثال. اذ لا يمكن لأية فضيلة اخرى غير المحبة ان تولي النفس اللاّهوى (انظر رو ١٠:١٣). هكذا اذاً يتجدد انساننا الداخلي في تذّوق المحبة يوماً بعد يوم ويجد كماله في كمالها.

في تذوق الله

٩٠ – هكذا ان شُغفنا بحرارة وفي اوائل تقدمنا بفضيلة الله تلك فالروح القدس يُذيق النفس حلاوة الله في شعور كلي بالملء. هذا ليعرف الذهن معرفة صحيحة ما الثواب الذي سيكلل اتعاب القداسة. ولكنه بعدئذ كثيراً ما يخفي عنا غنى هذه العطية المحيية لنحسب أنفسنا عدماً خالصاً، حتى ولو مارسنا بقية الفضائل كلها؛ ذلك لأننا لم نحوّل المحبة المقدسة بعد الى عادة. اذ ذاك يُمعن شيطان البغض في ازعاج نفوس المجاهدين الى درجة ينسبون معها البغض، افتراءً، حتى الى من يودّونهم، وكأنه بذلك يحمل قوة البغض القاتلة حتى الى القبلة. من ثم تزداد النفس ألماً لأنها من جهة تحمل ذكر المحبة الروحية، ولكنها من جهة اخرى لا تقدر ان تحوز الاحساس بها لعدم اتمامها اتعاب النسك الاكثر كمالا. فيجب اذاً، بانتظار حصول ذلك، غصب الذات على ممارسة تلك المحبة وصولا الى تذوقها في شعور تام بالملء. فما من احد يمكنه ان يحوزها بالكمال ما دام في هذا الجسد، ما خلا القديسين الذين بلغوا الى الاستشهاد والاعتراف الكامل. فمن حظي بهذا الامتياز يتغيّر كلياً ولا يعود يشتهي بسهولة حتى الطعام. فالذي الحبّ الالهي طعامه فماذا سيشتهي بعد من خيرات هذا العالم؟ لذا فبولس الكثير الحكمة وخزانة المعرفة يبشرنا من ملئه بالنعيم المقبل، نعيم الأولين بين الابرار، يقول: «ملكوت الله ليس طعاماً وشراباً بل برّ وسلام وفرح في الروح القدس» (رو ١٧:١٤). وهذه كلها ثمار المحبة الكاملة. هكذا يمكن الذين يرتقون الى الكمال ان يذوقوها منذ الآن باستمرار، ولكن ما من احد يقدر ان يحرزها كاملة ما لم يُبتلع المائت كلّياً من الحياة (٢ كو ٤:٥، وانظر ١ كو ٥٤:١٥ مستشهداً باشعياء ٨:٢٥).

٩١ – لقد روى لي أحد الذين يحبّون الرب بعزم لا يشبع فقال: «بما اني كنت في توق الى معرفة حب الله معرفة حقة وهبني اياها الصلاح الأسنى في شعور كبير بالملء. وقد احسست بفعلها بقوة حتى ان نفسي كانت آنذاك في فرح وحب لا يوصفان، تلتهب اشتياقاً الى الخروج من الجسد والذهاب الى الرب، وكأنها انقطعت عن معرفة هيئة هذه الحياة الزائلة». والذي خبر هذا الحب، حتى ولو شُتم او أُسيء اليه بألف نوع من الاساءات، لا يغضب على المسيء اليه. فمثل هذه المحن قد تظلّ تصادف من يجب ان يدرَّب. انه يبقى وكأنه ملتصق بنفس الذي شتمه، او حتى الذي أضرّ به، لذا فهو لا يستشيط غضباً الا على الذين يهاجمون المساكين او، كما يقول الكتاب، يتكلّمون على الله باستعلاء (مز ٥:٧٤)، او يعيشون في اي نوع آخر من الاثم. لأن الذي بات يحب الله اكثر من ذاته، بل لا يعود بالحري يودّ ذاته بل الله وحده، هذا لا يعود يطالب بكرامته، انما يبتغي فقط تكريم برّ الله الذي كرّمه كرامة ابدية. وهذا لا يبتغيه ابتغاء فاتراً بل يحوّل استعداده هذا الى عادة في خبرته العظيمة لمحبة الله. بالاضافة الى ذلك يجب ان نعرف اننا حين يدفعنا الله الى تلك الدرجة من المحبة نرتقي ابان ذلك حتى فوق الايمان، لاننا أصبحنا نعانق بحسّ القلب وبحبّ جزيل من كنّا نكرّمه بالايمان فقط. هذا ما يشير اليه الرسول القديس بوضوح حين يقول: «أمّا الآن فيثبت الايمان والرجاء والمحبة هذه الثلاثة ولكن أعظمهنّ المحبة» (اكو ١٣:١٣). لأن من يعانق الله في غنى الحبّ، كما قلت، هذا يكون اعظم بكثير من ايمانه نفسه لأنه انما هو بكليته في الشوق.

في محبة القريب

٩٢ – اذا اتفق وسخطنا على أحد وشتمناه فعادانا فانّ فعل المعرفة المقدسة فينا يسبّب لنا في المرحلة الوسطى (من المسيرة الروحية) حزناً غير قليل. لذا فهو لا يكفّ البتة عن وخز ضميرنا الى ان نسترجع المُساء

اليه بأعذار كثيرة الى علاقة الود السابقة. أمّا توجع القلب الأقصى الذي تسبّبه لنا المعرفة في المرحلة الاخيرة وفي وضع كهذا، فيغرقنا في النحيب والغم ولو كان قد سخط علينا علماني بغير حق، اذ ها نحن قد صرنا (لا لشيء) معثرة للذين يتكلّمون بحكمة هذا الدهر (انظر اكو ٦:٢). ومن ثمّ يصبح الذهن عاجزاً عن التأمل والمشاهدة لأن أقوال المعرفة، وفحواها المحبة، لا تدع الفكر يرحب للمعاينة الالهية قبل ان نستعيد الى المحبة حتى من سخط علينا اعتباطاً. واذا اتفق انه لا يرضى بذلك، او تباعد ليتهرّب منّا، تحثّنا المعرفة عندها على الاستعانة بسمات وجهها فنسكب نفسنا سكباً سخياً لنتمّ هكذا شرعة المحبة في عمق القلب.. اذ يتوجب، كما يقول الكتاب، على الذين يبتغون معرفة الله ان ينظروا في داخلهم، بروح خال من الغضب، الى وجه الذين يسخطون بلا داع. متى فعلنا هذا فلن يتمكن الذهن فقط من التبصّر دون تعثّر في الالهيات، بل سيرتقي الى حب الله بجرأة كبيرة وكأنه محمول من الدرجة الثانية الى الاولى بدون عائق.

في ضرورة الجهـاد

٩٣ – يبدو طريق الفضيلة للذين لا يزالون في بداية شغفهم بالتقوى كثير المشقّة والكراهية، لا لأنه هكذا بالفعل بل لأن الطبيعة البشرية ترتع بالملذّات منذ الحشا. أمّا الذين يقوون على اجتياز منتصفه فهو لهم منحدر كثير الراحة. فالعادات السيئة اذا ما أُخضعت للعادات الصالحة بممارسة الصلاح تزول مع ذكر الملذات الفاسدة، فتغدو النفس تسلك كل دروب الفضائل بسرور. لذا يقول الرب فيما هو يُدخلنا الى طريق الخلاص انه «ضيّق وكرب الطريق الذي يؤدّي الى الملكوت وقليلون هم الذينّ يجدونه» (متى ١٤:٧). أمّا للذين يرتضون التمسّك بحفظ وصاياه المقدّسة بعزم شديد فيقول «لأن نيري هيّن وحملي خفيف» (متى ٣٠:١١). ينبغي اذاً في اوائل الجهاد ان نغصب انفسنا على حفظ وصايا الله المقدسة، حتى اذا ما شاهد سيدنا الصالح قصدنا وأُتعابنا

هيّأ لنا ارادة مستعدة كل الاستعداد لخدمة مشيئاته بابتهاج. فالرب هو الذي يهّيء الارادة حينذاك فنغدو فاعلين الصلاح على الدوام بفرح كبير. اذ ذاك سوف نشعر حقيقة بأن الله هو «العامل فينا أن نريد وأن نعمل على حسب مرضاته». (في ١٣:٢).

٩٤ – ان لم يُسخَّن الشمع او يدعك طويلا فلا يمكنه تقبّل رسم الختم، وهكذا الانسان فان لم تمتحنه الاتعاب والأمراض فلا يستطيع احتواء ختم صلاح الله. لذا يقول الرب لبولس الالهي: «تكفيك نعمتي لأن قوّتي بالضعف تكمل». والرسول نفسه يمجد ذاته بقوله: «فبكل سرور أفتخر بالحريّ بضعفاتي لكي تحلّ فيّ قوة المسيح» (٢ كو ٩:١٢). ولكنه مكتوب ايضا في سفر الامثال «والذي يحبّه الرب يؤدّبه ويجلد كل الذين يرتضيهم ابناء له» (امثال ١٢:٣). هكذا يسمّي الرسول هجمات اعداء الصليب ضعفات لأنهم كانوا يهاجمونه باستمرار هو وجميع قدّيسي ذلك الزمن لئلا يرتفعوا بفرط الاعلانات كما يقول هو (٢ كو ٧:١٢)؛ بل كانوا بالأحرى يواظبون في مسعى الكمال هذا على صون العظمة الالهية بقداسة بفضل انسحاقهم وسط اوهانهم الكثيرة؛ في حين اننا نسمّي ضعفاتٍ الافكار الرديئة والاسقام الجسدية، لأنه لما كانت اجساد محاربي الخطيئة مطروحة للضرب القاتل ولتعاذيب اخرى مختلفة كانوا أعلى كثيراً من الاهواء التي اجتاحت الطبيعة البشرية بعد السقوط، اما الآن اذ يتكاثر سلام الكنائس بنعمة الرب (انظر بطرس الاولى ٢:١) فيقتضي ان تُمتحن اجساد ابطال التقوى بانحرافات صحية دائمة وان تُمتحن نفوسهم بأفكار سيئة، وبخاصة الذين تفعل فيهم المعرفة الالهية بشعور تام باليقين، حتى يقوا بعيدين عن كل غرور وكل تشتّت، ويستطيعوا بالتالي ان يتقبّلوا في قلوبهم من تلقاء انسحاقهم الكبير، كما سبق ان قلت، رسم الجمال الالهي وفقاً لقول النبي: «لقد ارتسم علينا نور وجهك يا رب» (مز ٤: ٧). من هنا ينبغي ان نتحمّل مشيئة الرب بشكر، واذ ذاك سيحسب لنا دوام الأمراض وقتال الافكار الشيطانية بمثابة استشهاد ثان. ذلك ان الذي كان يقول يوما للشهداء القديسين

بفم الحكام الكفرة: «انكروا المسيح واطلبوا كرامات هذه الحياة» يهاجم الآن ايضا خدام الله شخصياً بقوله لهم القول عينه دون انقطاع. ومن كان يعذّب أجساد القديسين حينذاك ويوجّه الى معلمي الكرامة أقصى الاهانات، بواسطة خدّام تلك المقاصد الشيطانية، هو نفسه الآن ايضا يضيّق على المعترفين بالايمان بتلك العذابات المتنوّعة وسط التعييرات والشتائم، خاصة حين يهبّون بقوة كبيرة ولمجد الرب الى مدّ يد العون للمعذّبين التعساء. لذا علينا تأدية شهادة الضمير بثبات وصبر امام وجه الله، فانه مكتوب «انتظرت الرب بصبر فأصغى اليّ» (مز ٣٩:١).

التواضعان

٩٥ – صعب هو اقتناء التواضع، فبقدر ما هو عظيم بقدر ما يتطلّب مجاهدات ليتحقق. ويحظى به مساهمو المعرفة الالهية بطريقتين. ما دام المجاهد في المرحلة المتوسطة من مراحل الخبرة الروحية، فانه، بتأثير أوهان الجسد، او مبغضي فاعلي البرّ، او افكار رديئة، يأتي الى تكوين مشاعر اكثر اتضاعاً. أمّا اذا كان الذهن قد استنار بالنعمة المقدسة، في احساس كبير باليقين، تقتني النفس حينها التواضع وكأنه بالطبيعة. فهي اذ كانت قد سَمِنت حقا بالصلاح الالهي لا تعود عرضة لانتفاخ العُجب ولو حفظت وصايا الله بلا انقطاع. بل ترى نفسها بالحريّ تحت الكل لأنها تشترك في العدل الالهي. هذا وان التواضع الاول يحمل معظم الاحيان حزناً وهبوطاً في الهمّة، اما الثاني ففرحاً مع خفر كثير الحكمة. لذا فالاول يأتي من هم في منتصف الجهاد كما قلت، والثاني يُمنح لمن يقاربون الكمال. لذلك فكثيرا ما تطيح بالاول نجاحات هذا الدهر. أمّا الثاني فلو قُدّمت له ممالك الارض كلها (انظر متى ٤:٨) لا يتعظّم ولا يشعر قطعاً بسهام الاثم المسدّدة اليه. وحيث انه لا جسماني تماماً لا يعرف البتة أباطيل الجسد، ولكن كان لا بدّ للمجاهد من المرور بالتواضع الاول ليصل الى الثاني. فان النعمة ما لم تُليّن مشيئتنا بالآلام التهذيبية

اولاً، على سبيل الاختبار لا القسر، لا تستطيع ان تثبينا عظمة الثاني.

في الحروب الاخيــرة

٩٦ – ان محبّي ملذات الحياة الحاضرة تنتقل بهم الافكار الى الزلاّت، ذلك انهم لعدم تبصّرهم يبتغون نقل معظم ايحاءات اهوائهم الى اقوال رديئة وافعال أثيمة. أمّا الذين يعتزمون ممارسة الحياة النسكية فينتقلون من الزلات الى الافكار الرديئة او الى بعض الاقوال السيئة والمؤذية. لأن الشياطين متى رأوا مثل هؤلاء يرتضون الاستهزاء بغيرهم بسرور او يتمادون في احاديث بطّالة وفي غير وقتها او يضحكون بلا احتشام، او يسرفون في الغضب او يطلبون المجد الفارغ التافه، يتسلّحون حينئذ ضدّهم باجماع الكلمة فيتّخذون المجد الباطل خاصةً فرصةً لخبثهم ويقفزون منه الى النفوس كما من نافذة مظلمة ويعيثون فيها فساداً. فينبغي اذاً على مريدي عيش الفضائل كلها عدم ابتغاء المجد ولقاء اناس كثيرين وعدم الخروج باستمرار والاستهزاء بالآخرين، حتى ولو استأهلوا الهزء، وعدم التكلّم كثيراً، حتى ولو كانوا قادرين على قول كل شيء كما يليق، فان كثرة الكلام تشتّت الذهن بما لا يقاس فلا تنتزع منه فقط كل أهلية للنشاط الروحي بل تدفعه ايضا الى شيطان الضجر الذي يضعفه جداً فيسلّمه الى شيطان الحزن ومن ثمّ الى شيطان الغضب. فيجب اذاً ان ينقطع الذهن دائماً الى حفظ الوصايا المقدسة والى ذكر عميق لرب المجد لأن «من يحفظ الوصية لا يشعر بشيء من الشر». يقول الكتاب (الجامعة ٨:٥) أي انه لا يميل الى افكار او اقوال شريرة.

٩٧ – حين يتلقّى القلب سهام الشياطين بألم كاوٍ، على نحوٍ يظنّ المرء معه انه يتلقى نبالهم عينها، تكره النفس اهواءها ولكن بعناء، كونها في مستهلّ مرحلة التطهّر؛ لأنها ما لم تتألم جداً لوقاحة الخطيئة فلن تتنعّم تنعّماً وافراً بصلاح البرّ. فمن يتوخى تنقية قلبه فليلهبه دائماً بذكر الرب يسوع جاعلاً من هذا الذكر وحده دراسته وممارسته الدائمتين. اذ يجب ألاّ

نصلّي حيناً ونتوقف عن الصلاة حيناً آخر اذا ما شئنا التخلّص من العفن الذي فينا بل يجب الصلاة على الدوام بيقظة الذهن حتى ولو كنّا خارج دُور الصلاة. فانه كما اننا اذا اردنا تصفية الذهب وتركنا نار البوتقة تنطفىء ولو لبرهةٍ وجيزة نعيد الصلابة الى المعدن الذي نصفّي، كذلك من لا يذكر الله الاّ من وقت لآخر يفقد بتراخيه ما يظنّ انه قد اكتسبه بالصلاة. إن خاصة الانسان المحب للفضيلة هي أن يحرق دائماً بذكر الله ما هو أرضيّ في قلبه حتى يبيد الشر شيئاً فشيئاً بنار ذكر الصلاح، وتعود النفس تماماً الى ضيائها الطبيعي بمزيد من البهاء.

٩٨ – ليس اللاّهوى في ألاّ تهاجمنا الشياطين، اذ يلزمنا عند ذاك ان نخرج من العالم كما يقول الرسول (اكو ٥: ١٠)، بل في ان نبقى محصّنين منيعين حين يهاجموننا. فان الجنود المصفّحين بالحديد يتلقون نبال خصومهم ويسمعون صوت الرماية، بل يكادون ان يروا كل السهام المطلقة عليهم، ولكنهم لاجل متانة دروعهم لا يُصابون بأذى. هؤلاء يدينون بسلامتهم للحديد الذي يجلببهم في القتال. امّا نحن المتسلّحين بلباس النور المقدس وخوذة الخلاص بممارستنا كل الصالحات فلنحطّمن جحافل الشياطين المظلمة، لأن الانقطاع عن فعل الشر لا يؤتي النقاوة وحده، بل تقويض الشر بكل قوتنا عبر الاهتمام بالخير.

٩٩ – اذا ما تغلّب رجل الله على سائر الاهواء او كاد ان يفعل يبقى عليه محاربة شيطانين. فالواحد يشوّش النفس بجذبها من حبٍ عظيم لله الى غيرة مسرفة تريد معها أن لا يُرضي أحدٌ الله كما تُرضيه هي. اما الآخر فيلهب الجسد فيثيره لاشتهاء الجماع الجسدي. هذا ما يحصل للجسد لأن هذه اللذة ملازمة للطبيعة بهدف الانجاب وبالتالي يسهل سقوطه فيها؛ هذا ما يحصل بسماح من الله ايضاً. فالرب حين يرى مجاهداً كاملاً ناجحاً في الفضائل كلها يسمح احياناً بأن يدنّسه مثل ذلك الشيطان حتى يعرف

ذاته أنه دنيّ اكثر من جميع أناس هذا الدهر. لا شك في ان إزعاج الهوى لنا يرافق الأعمال الصالحة او حتى يسبقها لكي تبدو النفس بسبب ذلك وكأنها بطّالة أيّاً كانت أفضالها الجزيلة (انظر لو ١٧: ١٠). ولكن فلنحارب الشيطان الأول بكثير من الاتضاع والمحبة، والثاني بالامساك وقمع الغضب وذكر الموت ذكراً عميقاً، حتى اذا ما أحسسنا أثر ذلك بفعل الروح القدس على الدوام نصير في الرب أعلى من كلٍ من الهوى الأول والثاني معاً.

١٠٠ – نحن الذين لنا نصيب في المعرفة المقدّسة سنؤدي جميعاً حساباً عن كل تشتّت ولو كان غير طوعي. «لقد ختمتَ على معاصّي غير الارادية نفسها» يقول ايوب الصديق (اي ١٤: ١٧). فالمرء الذي لا ينقطع عن ذكر الله ولا يهمل وصاياه لن يذّل لا طوعاً ولا كرهاً. فيجب اذاً أن نقدم للسيد اعترافاً حاراً فورياً حتى بالمخالفات الكرهية، أعني في تطبيقنا لطريقتنا اليومية (اذ يتعذّر على الانسان ما دام انساناً الا يتعرّض لزلاّت بشرية)، الى أن يلقى ضميرُنا في دموع الحب التأكيد بأن ذنوبه قد غُفرت؛ فالقديس يوحنا يقول: «إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهّرنا من كل إثم» (يوحنا الاولى ١: ٩). ويجب اعارة الاستعداد للاعتراف انتباهاً دائماً لئلا ينخدع ضميرنا اتفاقاً، ظانّاً انه قد اعترف لله على نحو كافٍ. فالله متطلّب في حكمه اكثر من ضميرنا بكثير حتى وان كنا بيقين كامل لا نعي وجود أية خطيئة فينا، كما يعلّمنا بولس الكلي الحكمة فيقول: «لست أُحكمُ في نفسي ايضاً فإني لست أشعر بشيء في ذاتي لكنني لست بذلك مبرّراً ولكن الذي يحكم فيّ هو الرب» (اكو ٤: ٣ – ٤). لأننا ان كنا لا نعترف كما يجب حتى بتلك الزلاّت فسنكتشف فينا ساعة الرحيل خوفاً خفياً مبهماً. فعلينا نحن الذين يحبّون الله ان نصلي حتى نوجد حينذاك معتَقين من كل خوف. فمن يوجد في الخوف لن يعبر أمام رؤساء الهاوية كإنسان حرّ. لان ذلك الخوف الذي تشعر به النفس من جرّاء مساوئها هو حليف لهؤلاء. اما النفس المتهللة بحب الله فتؤخذ ساعة الانعتاق مع ملائكة السلام مرتقيةً فوق كل

جحافل الظلمة، او تكون وكأنها محمولة على أجنحة الحبّ الروحي حاملةً دون انقطاع المحبة التي هي كمال الناموس (انظر رو ١٣: ١٠). لذا فالذين يفارقون هذه الحياة بمثل تلك الثقة سيُخطفون عند مجيء الرب مع جميع القديسين (انظر اتس ٤: ١٦). اما الذين يرتعدون عند الموت ولو قليلاً فسيُتركون اسفل مع سائر الناس الاخرين كخاضعين للدينونة، حتى يُمتَحنوا بنار الدينونة (انظر بطرس الاولى ١: ٧) فينالوا المصير الذي يستحقون طبق اعمالهم من يدَيْ ملكنا الصالح وإلهنا يسوع المسيح، لانه إله العدل وله الفيض الذي يسكبه علينا نحن محبّيه، فيض حلاوة ملكوته (مز ٣٥: ٨) الى دهر الداهرين آمين.

مؤلفات دير مار جرجس الحرف

- أُصول الحياة الروحية - طبعة اولى ١٩٧١ - طبعة ثانية ١٩٨١ - منشورات النور.
- مدخل الى الكتاب المقدس - طبعة ثانية ١٩٧٨ - منشورات النور.
- من اجل فهم الليتورجيا وعيشها - طبعة ثانية موسّعة ١٩٨١ - منشورات النور.
- العبادة المسيحية - طبعة اولى ١٩٦٥ - مكتب التعليم الديني في طرابلس.
- العبادة المسيحية - طبعة ثانية ١٩٨٥ - توزيع مكتبة السائح طرابلس.
- الحياة الرهبانية - ١٩٨٤ - منشورات النور.
- طريقة الحياة الرهبانية في دير مار جرجس الحرف - ١٩٦٢ - نشرة الدير.
- على عتبة التكريس - ١٩٦٣ - نشرة الدير.
- في الكهنوت - ١٩٨١ - منشورات النور.
- انجيل يوحنا قراءة وتعليق - الجزء الاول - ١٩٨٦ - منشورات النور.
- معرفة الله - ١٩٨١ - مؤسسة القديس انطونيوس في مصر.
- انطونيوس الكبير (شرح اقواله) - ١٩٨٣ - منشورات النور.
- مساهمة في كتاب «الكتاب المقدس وحياتنا الشخصية» - ١٩٨٣ - منشورات النور.
- مساهمة في كتاب «الجسد والعفة والحب» - ١٩٨٣ - منشورات النور.

– مساهمة في كتاب «الروح القدس» – ١٩٨٣ – منشورات النور.

ترجمة

– السلّم الى الله – طبعة ثانية ١٩٨٥ – منشورات النور.
– انجيل يوحنا قراءة وتعليق – الجزء الثاني ١٩٨٧ – منشورات النور.
– القصد الالهي – ترجمة بالاشتراك مع غبطة البطريرك اغناطيوس الرابع – منشورات النور.
– سرّ عطية الدموع في الشرق المسيحي – ١٩٧٤ – منشورات النور.
– يوحنا كرونستادت – ١٩٨٢ – منشورات النور.
– في الصلاة لإفاغريوس – منشورات دير الحرف.
– مساهمة في «فصول في الصلاة والحياة الروحية» – ١٩٨٣ – منشورات النـور.
– الاب يوحنا كرونستادت – ١٩٦٦ – نشرة دير الحرف.

فهرس

٥ – مقدمة
١٤ – تمهيد
١٥ – عموميات
١٦ – في المعرفة والحكمة
١٨ – في محبة الله
٢٢ – في ازدواجية النفس
٢٣ – في تمييز الارواح
٢٧ – في الرؤى والاحلام
٢٩ – في الطاعة
٣٠ – في الطاعة والعفة
٣٠ – الاعتدال في تناول الطعام
٣١ – الاعتدال في شرب الخمر
٣٢ – الاستحمام
٣٣ – في الاستفادة من الامراض
٣٤ – في عدم الاكتراث بما يجري
٣٥ – في الضجر
٣٧ – في فائدة الغضب
٣٨ – في التجرد والفقر
٤١ – في اللاهوت والمشاهدة
٤٢ – في تقلبات التأمل
٤٥ – في النعمة والارواح المختلفة
٥٦ – في تذوق الله
٥٧ – في محبة القريب
٥٨ – في ضرورة الجهاد
٦٠ – التواضعان
٦١ – في الحروب الأخيرة
٦٥ – مؤلفات دير مارجرجس الحرف
٦٧ – الفهرس